خالد محمد خالد

الدولة في الإسلام



دار ثابت

خالد محمد خالد

الدولة في الإسلام



دار ثابت

الطبعة الأولى { صفر ١٤٠١
يناير ١٩٨١ }

الناشر دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد فريد ـــ القاهرة
ص.ب ٦ باب اللوق

بسم الله الرحمن الرحيم

وأنِ احكُم بينهم بما أنزل الله

ولا تتّبع أهواءهم

واحذَرهم أن يَفتِنوك

عن بعض ما أنزل الله إليك

صدق الله العظيم

- ١ -

فى عـــام ١٩٥٠م ظهـــر اول كتـــاب لى ، وكان عنـــوانه : « من هنا .. نبـــدأ » .

وكان ينتظم اربعة فصول ، كان ثالثها بعنوان : «قومية الحكم»

وفى هذا الفصل ذهبت اقرر أن الاســـلام دين لا دولة ، وانه ليس فى حاجة الى ان يكون دولة .. وان الدين علامات تضيىء لنـــا الطريق الى الله وليس قـــوة سياسية تتحكم فى الناس ، وتأخـــذهم بالقوة الى سواء السبيل . ما على الدين الا البلاغ وليس من حقه أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن ثواب .

وقلت : ان الدين حين يتحـــول الى « حكومة » ، فان هـــذه الحكومة الدينية تتحول الى عبء لا يطـــاق . وذهبت اعدد يومئـــذ ما أسميته : « غرائز الحـــكومة الدينية » وزعمت لنفسى القدرة على اقامة البراهين على انها أعنى الحكومة الدينية فى تسع وتســـعين فى المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وأنها احدى المؤسسات التاريخية التى استنفدت اغراضها ولم يعد لها فى التاريخ الحديث دور تؤديه .

وكان خطئى اننى عممت الحديث حتى شمل الحكومة الاسلامية .

وقلت : ان غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد ، ولخصت هذه الغرائز فى :

(١) الغموض المطلق ، اذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة ، لا يعرف مأتاها ، ولا يدرك مداها ، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق ..

(٢) ومن خصائصها – كما قلت يومذاك – أنها لا تثق بالذكاء الانسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لانها تخافه وتخشاه .

(٣) وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها تهيب بجانب الضعف فيهم . فتلقى فى روعهم أن رواد الخير والحرية والفكر والاصلاح ليسوا سوى أعداء لله ولرسوله يحاولون نفى الدين عن المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتصونه .

(٤) والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه . بل ولا مجرد لفت النظر فضلا عن المعارضة والنقد .

(٥) والوحدانية المطلقة اعتى غرائزها – وهى تحفزها الى مكافحة الراى مهما يكن حكيما ، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصة نافعة .

(٦) والجمود الذى تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لان صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم .

(٧) والقسوة المتوحشة هى سيدة غرائزها واكثرها عتـوا ونفوذا وانها لتحز عنقك وتهرق دمك وهى تصيح من فرط نشوتها : واها لريح الجنـة ..

* * *

هكذا ذهبت انعت واهدم ما أسميته يومها بالحكومة الدينية .!

وهكذا اخـذت كل خصـائص ونقـائص الحكم الاتقـراطى الديكتاتورى وخلعته على ما اسميته « الحكومة الدينية » .. !!

ولم اكن يومئذ أخدع نفسى ولا ازيف اقتنـاعى ، فليس ذلك والحمد لله من طبيعتى . انما كنت مقتنعا بما اكتب مؤمنا بصوابه .

وحين أرجع بذاكرتى الى الايام التى سطرت فيها هذا الراى وهذه الكلمات لا أخطىء التعرف الى العوامل التى تغشتنى بهـذا التفكير .. والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيدا عن ظلام التعصب وغواشى العناد ، فانه يستطيع دائما او غالبا أن يهتدى الى الصواب ويقترب من الحقيقـة ويعانقها فى يقين جديد ، وحبور أكيـد ، ونحن مطالبون بأن نفكر دائما ، ونراجع افكارنا ، وننكر ذواتنا ونتخلى عن كبريائنا أمام الحقائق الوافدة .. واذا لم نفعل فسنكون كما قـال « افلاطون » :

« مجانين ، اذا لم نستطع ان نفـكر .. » !!

« ومتعصبون ، اذا لم نرد أن نفـكر .. » !!

« وعبيـد اذا لم نجـرؤ ان نفـكر .. » !!

* * *

واحمد الله على اننى لست من المجانين ، ولا المتعصبين ، ولا العبيد .. ومن اجل هذا كان من اليسير على ان استقبل فى بشر ومودة هذا التفكير الجديد الذى واتانى من طول التأمل والتمعن وتقليب وجوه النظر فى حياد سديد .

ترى ماذا كانت المقدمات التى اوصلتنى الى موقفى القديم من « الحكومة الدينية » ، او بتعبير اصح ماذا كانت البواعث النفسية والفكرية التى افضت بى الى ذلك الموقف .. ؟؟

واود — أولا — ان اشير الى ان تسمية « الحكومة الاسلامية» بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ . فعبارة « الحكومة الدينية » لها مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلا ، وطال مكثه . وكان الدين المسيحى يستغل ابشع استغلال فى دعمه وفى اخضاع الناس له .

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت اغراضها سياسية ، واصلت الناس سعيرا بسوء تصرفاتها وتحكمها .. وهى فى المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الاسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية ، لا سيما فى العصور الوسطى ، عصور الظلام !!

ولعل اول خطأ تغشى منهجى الذى عالجت به قديما قضية الحكومة الدينية ، كان تأثرى الشديد بما قرأته عن الحكومات الدينية التى قامت فى أوربا ، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثارا تغطى به عريها وعارها ..

أجل . فانى استطيع ان الخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم

واردها الى عاملين اثنين — كان هذا اولهما .. التاثر بما قراته عن الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدنى اقول فى كتابى « من هنا نبـــدأ » .

« .. ففى الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التى لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الآذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التفتيش ، وحرق العلماء بالنار وهم احياء !! » .

ثم قلت :

« وفى الحكومات الدينية الاسلامية حدثت اهـــوال مروعة ، حتى ان حاكما دينيا واحدا — هو الحجاج — اباد البقية الكريمـــة الصالحة من صحابة رسول الله، حتى قال عنه «عمر بن عبد العزيز»

« لو جاءت كـــل أمة بخطاياها ، وجئنا نحن بنى اميـــة بالحجاج وحده لرجحناهم ... !!»

اذن ، فقد كنت فى قمة التأثر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية ، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى الاسلام واعتبرتهم حكومة دينية اسلامية .. !!

ومضيت أدحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الاســـلام بنفس القوة التى دحض بها الفكر الانسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى ظل الكنيسـة وكانت اكثر خطرا على المسيحية من الشيطان نفسه !!

من قال ان الحجاج حاكم دينى .. ؟ وهل فى الاسلام كهنوت

يستطيع ى حاكم ان يستمد منه سلطانا مطلقا وفى ذات الوقت يكون مقدسا .. ؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنيا وخطـأ .

ان الاسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح أيا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لاى كهنوت لا فى تعاليمه ولا فى تطبيقاته .

من أجل هذا كان تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها أمر مجاف لكل صواب ..

* * *

اما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم .

ذلك أن « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضـوء ، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال اسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعة فى أوج مجدها الباهر ، لا ندرى هل انبثق منها، أو أقحم عليها وتسلل اليها ما سمى يومئذ بالتنظيم السرى . وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاغتيالات لفرض الدعوة .. الدعوة التى كانت قد حققت بالاقتناع والمنطق ما لم تحققه

دعوة اخرى . . والدعوة التى كانت لباقة مرشدها الاستاذ حسن البنا رحمه الله واخلاصه يفتحان له الآذان الصم والقلوب الغلف ، ويسلسان له قياد الجماهير كافتهم ومثقفيهم .

لفتت حوادث الاغتيال التى مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أفئدتهم . وكنت من الذين اقض مضجعهم هذا النذير . وقلت لنفسى اذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون ؟؟ !

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما أعتقده والا لعنك الله ، سيقول لك غدا : أعتقد ما اعتقده والا قتلتك» !!!

على أن ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن الى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى الى التحذير من قيام اى حكومة دينية باسم الاسلام .

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه . .

كان الخطأ الاول مضاهاتى الحكومات الدينية الكنسية بحكم الاسلام .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما اقترفه الجهاز السرى باسم الاسلام .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . فقد جعلت ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت

به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك الى قتلة . . جعلت هذا وذاك «مصدر» تفكيرى ، لا «موضع» تفكيرى !! وفارق كبير بين أن تجعل الحدث أو الشيء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك .

عندما يكون مصدر تفكيرك فانه يقودك فى طريقــه هو ، لا فى طريق الحقيقة . وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا الى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاســتقلال الفكرى حظه فى تمعنها ودراستها .

أما حين يكون الشيء موضع تفكيرك فانه يمد تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحــكم مسبق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم .

الى هذا السبب الجوهرى أرد خطئى فيما أصدرته ـــ قديما ـــ من حكم ضد الحكومة فى الاســلام ، هــذه التى أسميتها بالحكومة الدينية .

– ٢ –

والآن ، وفى ضوء اقتناعى الجديد بأن الاسلام « دين ، ودولة »

فكيف وصلت الى هذه الحقيقة ؟؟ وما شــكل هذه الدولة ؟؟ وما اغراضها وأهدافها حين تقوم ؟؟

أما التقائى بهذه الحقيقة ، أو لنتواضع ولنقل هذه النتيجة . . فقد جمعنى بها فى لقاء سعيد ، العقل لا الوجدان .

لقد توارت الاسباب التى حدثتكم عنها من قبل ، واستقبلت القضية بعقل غير عصى ، ونفس تواقة الى معرفة الحق واعــلانه بصوت جهير ، دون أن تجد غضاضة او خجلا من ان تعترف بالخطأ وتواجه الصواب .

قلت لنفسى :

قبل أن يكون هناك اســلام كان هناك عرب . وهؤلاء العرب هم الرعيــل الاول الذى حمل راية الاســلام ، وســار بها مشرقا ومغربا .. فهل كان أولئك العرب عنصرا مهيأ لان ينشىء « حكومة » او يتقبل تبعاتها ويحملها فى اقتدار .. ؟؟

هل وقعت للعرب قبل الاسلام تجربة مع الحكم فاسسوا دولا وحكومات ؟

انه على فرض انتفاء هذا الامر ، فلن يسلب الاسلام حقه ولا مقدرته على تأسيس دولة .

ذلك أن الاسلام جاء ليكون قوة تغيير عميقة وشاملة .. جاء فغير العقيدة والمجتمع والسلوك .

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة ، فان الاســلام بخصائصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح .

ومع هذا فسنرى أن هؤلاء الذين نزل الاســلام أول ما نزل عليهم وفيهم ، كانوا وكان آباؤهم ممن أنشــأوا الممالك والامارات .

فقبل مجىء الاسلام بقرون ، كان هناك عرب لهم حكومات هم الذين أنشأوها ، وحضارة هم الذين صنعوها .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن (١) :

كان فى الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها أطلال المبانى الضخمة ، والنقوش الكثيرة . وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والابهة التى وصلت اليها مملكة سبأ .

كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة ومملكة الغسانيين . وكان فى جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى .

وكان هناك مملكة « معين » وقد سبقت مملكة « سبأ » فى الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة .

وتلتها فى الظهور مملكة سبأ التى اشتهرت بالثروة والقوة بين ممالك العالم فى ذلك الحين ، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش « أوغسطس قيصر » عن أسوار مأرب ودحرتها .

وكان لها تجارة واسعة مع مصر ، وسوريا ، وبابل . . ولا تزال سدودها وأحواضها تثير اعجاب الرحالة والسائحين . وتدل آثارها وأطلال ابنيتها الفخمة على ما بلغته من العظمة والمجد .

وكان لها أسطول بحرى ينقل تجارتها الى حيث تريد ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء الى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ .

وكذلك كان هناك مملكتا الحيرة وغسان ، قامتا على حدود بادية الشام .

وكانت الامبراطورية الفارسية تستعين بمملكة الحيرة على حرب الروم . كما كان الرومان يستعينون بأمراء غسان على الفرس .. !!

وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادى حتى ظهور الاسلام . وكان لاهلها اثر كبير فى الحضارة العربية . وتعاقب على ملكها خمسة وعشرون ملكا .

ويقول الدكتور أحمد سوسة فى كتابه « حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور » .

« تبدأ المرحلة الاولى من حضارة العرب القديمة فى حوالى أربعين ألف سنة قبل الميلاد ، وتنتهى فى حوالى ثمانية عشر ألف قبل الميلاد . وقد عاشت هذه الحضارة ضمن حدود جزيرة العرب ..

« ... ويرى الخبراء المتخصصون فى شئون البلاد العربية أن الهجرة من جزيرة العرب تمت فى الاصل من منطقة جنوبى الجزيرة . ومنها توجهت الجماعات النازحة من جزيرة العرب الى الشمال ، ثم توزعوا على أطراف الهلال الخصيب فى فلسطين وسورية ومصر والعراق ..
« وفى هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل العربية النازحة من جزيرة العرب بفضل الحضارة

والخبرة اللتين اكتسبتهما فى وطنها الاصلى خلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى فى مستوطناتها الجديدة .. فأسست هذه القبائل فى مدة قصيرة نسبيا لاتتجاوز ثلاثة آلاف سنة أقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم فى تاريخ البشرية أى الامبراطوريات الساميات الاربع : الاكدية ، والبابلية، والآشورية ، والكلدانية الآرامية ..

« ان الهجرات المتتالية التى انبعثت من جزيرة العرب كانت من اهم العوامل فى تقدم الكيان الحضارى فى الشرق الادنى والسير به نحو التطور فى مختلف الميادين الزراعية والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية . ذلك الكيان الذى انبعثت منه أقدم الامبراطوريات وأعظمها فيما عرفه التاريخ ..

« فالجزيرة العربية اذن هى بحق مهد الحضارات السامية العربية ، فقد قذفت بأبنائها الاشداء الى ماوراء الصحارى .. فهى والحالة هذه الينبوع الذى انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية فى الهلال الخصيب ..
« وكانت مستوطنات شعب الجزيرة فى عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربية « الام » وابناءها فى بلاد المهجر ..

« لقد كان هؤلاء العرب بناة اعظم واقدم امبراطورية

سامية عرفها التاريخ . وهى الامبراطورية الاكدية التى اسسها « سرجون » فى القرن الربع والعشرين قبل الميلاد والتى سميت بالاكدية نسبة الى عاصمتها « أكد »
« وعندما استقرت الحضارة السامية فى العراق ازدهرت فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا رئيسا وهاما فى تقدم الحضارة الانسانية . .

« ولقد بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المد والجزر كونت فى خلالها دولا عربية كدولة الغساسنة فى سورية ، والمناذرة فى العراق ، ودولة الأنباط والتدمريين وغيرها من الامارات العربية كامارة كندة ، وامارة الحضر وامارة الرها ، وامارة حمص وغيرها حتى ظهر الاسلام فانبعثت به الحضارة العربية على مستوى أوسع واعم ، وعادت فانبعثت من منبعها الاصلى (جزيرة العرب) وأسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التى سبقتها بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وافريقيا واوربا) .. وقد حاولت أوربا المسيحية قهر الحضارة العربية الاسلامية وابادتها ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت حوالى مائة وخمسين عاما » .

ويختم المؤلف بحثه هذا بكلمة « جورج سارتون » الذى يقول :
« سبق للعرب ان قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الاقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى اربعة قرون تقريبا

وليس ثمة ما يمنع هذه الشـــعوب من أن تقود العـــالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد » .

* * *

اذن كان هناك ممالك عربية وحكومات عربية وحضارة عربية أيام كانت « أوربا » وما حولها مغارات وكهوفا ، وظلاما فى ظلام .

واذن ، فالبيئة التى نزل عليها الاسلام كانت ذات ماض عريق وتجربة عريقة وممارسة طويلة الامد مع الحكم والحكومات .

ونحن نعلم أن الاسلام جاء ليحدث تغييرا وتصـــعيدا . تغييرا للباطل ، وتصعيدا وتعلية لكل ما هو ضرورى وحق .

ولم يكن العرب فى عصور الجاهلية الموغلة فى البعد ، بقادرين على ما يعجز عنه أسلافهم فى ظل الاسلام بكل قوته وعظمته ورشده .

وحتى مكة ـــ فيما بعد ـــ والتى لم تكن فيها حكومة ، نجدها قد قامت بتوزيع مسئوليات الحكومة على قبائلها وبيوتاتها وأفخاذ رجالها فكانت قوى المجتمع هى التى تحكم وتقود فى تنظيم ناضج وسديد .

والمدينة كانت قبل ذهاب الاسلام اليها تتهيأ لتتويج ملك عليهـــا واذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما . .

وهكذا لم يكن الاســـلام يعمل فى خواء ولا يبـــدأ من فراغ حين يدعو اتباعه لتأسيس حكومة ، بل وحين يبدأ بالفعل فى تأسيس دولة وقف على رأسها امام المتقين وخاتم المرسلين وخير خلق الله اجمعين .

- ٣ -

وعندما توجد « أمة » تؤلف بينها وحدة اللغة والجنس والدين . . وتوجد الارض او « الوطن » الذى تقطنه هذه الامة . . . . ثم توجد « سلطة عليا » تنظم شئون هذه الجماعة ، فقد وجدت الدولة . .

ولقد توفر هذا كله للامة المسلمة بعد ان استقر مقام المسلمين فى المدينة . فقد كان هناك « أمة » هى أمة الاسلام . وكان هناك وطن وعاصمة لهذه الامة ، هى « المدينة » . . وكان هناك سلطة عليا تتمثل فى الرسول صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه من ربه وبما تتمخض عنه مشوراته الدائمة مع أصحابه حول كل القضايا والمواقف التى لم يات الوحى فيها ببيان .

وهذه حقيقة لا تقبل المماراة .

يقول المستشرق « هاملتون جب » :

« بعد الهجرة قام فى المدينة مجتمع قائم بذاته منظم على قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد .
« وقد كانت فكرة الرسول الثابتة عن هذا المجتمع الدينى الجديد الذى أقامه ، أنه سينظم تنظيما سياسيا . ولن يكون هيئة دينية منفصلة ومندرجة تحت حكومة زمنية » (١)

---

(١) نقلا عن كتاب :
النظريات السياسية فى الاسلام للدكتور ضياء الدين الريس .

ويقول المرحوم الدكتور محمد ضياء الدين الريس (٢) :

« لم يكن هناك أية وظيفة من الوظائف التى يمكن أن يقال عنها أنها سياسية — من اعداد الاداة لتنفيذ العدالة ، او تنظيم الدفاع ، أو بث للتعليم ، او جباية للمال ، أو عقد معاهدات ، أو انفاذ سفارات الا كانت هذه الدولة تؤديها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فالمجتمع المسلم فى المدينة اذن كان له دولة يقودها رسول الله صلى الله عليه وسلم .. دولة لها جيش ، وراية ، وقوانين ، وضرائب ، وكل مقومات الدولة الحديثة . واتسع نطاق هذه الدولة ، وقام صرحها العظيم فى عهد الخلفاء الراشدين . ثم فيما تلاه من عصور وعهود .

ولعلنا لا نجد دينا ، ولا نظرية تتطلب طبيعتهما قيام الدولة كما نجد ذلك فى الاسلام .

فالاسلام دين نظام ، ليس فى نطاق المعاملات وحسب . بل وفى نطاق العبادات .. فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، كلها تؤدى وفق نظام حازم وحكيم .

وهو لا يعنى بتنظيم الحياة فى نطاقها الواسع فحسب ، بل وفى أضيق نطاق .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم معلما اصحابه وأمته :

« اذا كنتم ثلاثة فى سفر ، فأمروا أحدكم » .

---

(٢) نفس المرجع السابق .

اى ، فليختر الثلاثة من بينهم واحداً يكون عليهم « أميرا » ينظم مسعاهم ومسراهم .

فكيف نتوقع من دين يعنى بالامارة بين ثلاثة الا يعنى بها بالنسبة لمجتمع كبير وامة عريضة .. ؟!

ولقد كان أصحاب الرسول رضوان الله عليهم على وعى كامل بهذه الحقيقة ولهذا وجدناهم يتجه اهتمامهم بعد موت الرسول مباشرة الى اختيار الخليفة ، حتى قبل تجهيز الرسول ودفنه !!

* * *

كان الرســـول صلى الله عليه وســـلم يدرك ان بناء « دولـــة الاسلام » واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول .

بل لعله كان يرى ذلك جزءا من مهام الانبياء والمرسلين ايضا .. فعليه تنزلت الآية الكريمة التى خاطب الله بها نبيه داود عليه السلام :

« يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضـــلك عن ســـبيل الله » .

فالله سبحانه يخـــاطب « داود » نبيه بانه خليفتـــه فى الارض يسوس أمور قومه ، وينشر العدل ، ويحكم بين النـــاس بالحق .. أفلا يكون « محمد » عليه السلام كذلك نبى دعوة ، وقائد دولة وامة ؟؟

والاسلام باعتباره « خاتم » الاديان ، و « صفوة » الشرائع ، لا يمكن ان يحقق ذاته الا بارساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين الخاتم .

ومادام المجتمع البشرى بطبيعة تكوينه فى حاجة الى دولة او دول تنظم سلوكه وحياته ، فكيف يغفل الاسلام عن تلبية هذه الحاجة الملحة والضرورية .. ؟؟

بل ان الكتب التى ارسلها الرسول الكريم فى السنة السادسة للهجرة الى نفر من اباطرة العالم يومئذ وحكامه ، وعلى رأسهم « هرقل » امبراطور الروم ، و « كسرى » فارس ، و « النجاشى » امبراطور الحبشة ، و « المقوقس » حاكم مصر وغيرهم .

نقول ان هذه الخطوة من جانب الرسول كان لها مغزاها السياسى بعد مغزاها الدينى .

انها تدعوهم الى عبادة الله وتوحيده والدخول فى دينه الخاتم ، ولكن ، لعلها بعد هذا تشير الى ما كان الرسول عليه السلام يعلقه على الاسلام من أمل فى اقامة « حكومة عالمية » تقوم على منهج الدين وقيمه ومبادئه لا سيما بعد أن كشف الله له حجب الغيب يوم الخندق فرأى الاسلام يضيء بصرى والشام والعراق وفارس والروم .. !!

لقد كانت هذه الرؤية لا الرؤيا . التى وقعت يقظة لا مناما حين كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع اصحابه فى حفر الخندق فاعترضتهم صخرة عاتية ، فتعرض لها الرسول بمعوله وحين انصدع جبروتها وطار شررها كبر الرسول ربه وحمده بصوت جهير ، فقد رأى نورا يغمر جنبات الارض ، والقى فى روعه انه نور الاسلام سيضيء البلاد ويهدى العباد .

كانت هذه الواقعة فى غزوة الخندق فى السنة الخامسة من

الهجرة وكانت كتـابته للاباطرة والملوك بعد ذلك بقليل فى السـنة السادسة للهجرة . . أفلا نلمح علاقة بين الموقفين ؟

انه مادام الرسول كان رسول الله للعالمين ، وكان دينه شرعا للعالمين . فلماذا لا تكون النظم التى أرساها هذا النبى وهـذا الدين منهجا للعالمين سواء كانت نظما سياسية أم اجتماعية ؟

لماذا لا يطمح الاسلام الى « حكومة عالمية » تلتف حول مبادئه وكتابه . . ؟

لقد تحققت نبوءة الرسول التى تنبأ بها يوم الخندق . . وخلال خمسة وعشرين عاما دانت الجزيرة العربية كلها للاسلام ودخل تحت مظلة دولته الكبرى معظم بـلاد وتخوم الامبراطوريتين الفارسـية والرومانية ثم توالى الفتـح بعد ذلك حتى صـارت القوة والزعامة الاسلامية طوال مائتى سنة هى القوة الاولى فى العالم كله .

أجل — بين عامى ٦٥٠ ، ٨٥٠ ميلادية كانت الدولة الاسلامية اقوى واعظم دولة فى العالم .

وفى أقل من ثمانين عاما شملت الفتوحات الاسلامية من الارض والبلاد أكثر من تلك التى ضمتها روما فى ثمانمائة عام . . ! !

ولم تكن فتوحات الاسلام غاشمة ولا ظالمة ، بل كانت رحمـة وهداية وسلاما . . كانت حروب تحرير وتمـدين . وليس أدل على ذلك من أنه بعد تفكك الدولة الاسـلامية ظل المسلمون قادة الفـكر والعلم فى العالم لمدة خمسة قرون .

كما انها لم تكن فتوحات عنصرية ، فان الكثيرين من أبناء الدول المفتوحة كانوا يصــلون الى اعلى مناصب الدولة . وعنــدما ترك المسلمون اسبانيا ـــ مثلا ـــ لم يتركوها مهلهلة منهوبة . بل تركوها امبراطورية عظمى بفضل ما كانوا قد اسدوا اليها من حضارة وعمران وثقــافة ..

اوكل ذلك ، ثم نقول : الاســلام دين لا دولة .. ؟! اذن فماذا كان كل هذا الفتح العظيم والطود الشامخ ؟؟

— ٤ —

لقد كانت تصرفات الرسول تومىء الى رجل ينشر دعوة ويبنى دولة فهو يشــكل الجيــوش ويجعل عليهــا أمراءها ، وهو يعقــد المعاهدات ، ويرسل السفارات ، ويجمع الضرائب ـــ زكاة وجزية ـــ وحين يغادر المدينة عاصــمة الدين والدولة يختار أميرا يخلفه فيهــا ويقوم اداريا وسياسيا ودينيا بكل مهام الرسول عليه السلام . ولقد قام الرسول فى المدينة بكل مسئوليات النبى والحاكم ، واستمر ذلك من بعده بدءاً من يوم السقيفة ..

من أجل هذا ، اجمع المسلمون ـــ اهل السنة ، والمعتزلة ، والشــيعة ، والمرجئــة ، والخوارج الا قلة ضــئيلة عرفت باســم « النجدات » اجمعوا جميعا على وجوب نصب « الامام » أى قيــام « الدولة » التى ترعى شئون الاسلام والمسلمين .

والاسلام وان يكن دينا شرعه الله سبحانه الا أنه فى تطبيقاته الانسانية يمثل « عقدا اجتماعيا » يتضمن قيام سلطة تفى بالتزامات هذا العقد ، وتسهر على تنفيذه .

والمبادىء والتنظيمات التى تلبى كل احتياجات الناس ، والتى اثرآها « الفقه الاسلامى » وتنفسح فى تبيانها تتطلب شرعا وعقلا وبداهة قيام « سلطة » تؤمن بهذا التراث وتلتزم باحترامه وتنفيذه .

والاسلام يقيس نوع السلطة بنوع قيمه ومبادئه ، فهو لا يقبل أى سلطة تفرضها ظروف مجافية لمبادئه . بل لابد أن يتوفر لهذه السلطة من العدل واحترام الشريعة ما يجعلها جديرة بكونها سلطة اسلامية .

من اجل هذا عرف الفقهاء المسلمون رئيس الدولة المسلمة بانه « يقوم بأمر الحرب والسلم ، وتدبير الجيوش والسرايا وسد الثغور ، وحماية الامة ، والاخذ من ظالمها لمظلومها ، والقيام بكل مصالحها ومهامها السياسية » .

ومن أجل هذا اجمع الفقهاء كما اسلفنا على وجوب قيام الدولة المسلمة .

يقول ابن خلدون :

« ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين» .

ويقول حجة الاسلام الغزالى :

« الدين والسلطان توأمان » .

ويقول النسفى فى عقائده :

« والمسلمون لابد لهم من امام يقوم بتنفيذ احكامهم ، واقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، وتجهيز جيوشهم ،

وجمع الزكاة المفروضة عليهم ، وقهر المتلصصة وقطاع الطـريق ، واقامة الجمع والاعيـاد ، وقطع المـنازعات القائمة بين العباد » .

ويقول الامام الغزالى ايضا مبينا حاجة الدين والدنيا الى الامام اى الدولة :

« ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصـل اليهما الا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والاقوات والامن ، ولعمرى من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

« فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الامن على هذه الضروريات ومن قضى جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسـه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبـة ، فمتى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة .

« . . . ان الدنيا والامن على الانفس والاموال لا ينتظمان الا بسلطان مطاع . وهذا تشـهد له أوقات الفتن . . فما لم يتـدارك الامر بسـلطان مطاع لدام الهـرج وعم الشغب وشمل القحط ، وهلك الناس وبطلت الصناعات وصار كل من غلب سلب ، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم ان بقى حيا ، والاكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف . ولهذا قيل : الدين اساس والسـلطان حارس . وما لا اساس له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فضائع » (١) .

---

(١) كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد .

وقال الماوردى :

« .. ويجب اقـامة امام يكون سـلطان الوقت وزعيم الامة ، ليكون الدين محروسـا بسلطانه ، والسـلطان جاريا على سنن الدين واحكامه » .

وقال الشهرستانى :

« ولابد للكافة من امام ينفذ أحكامهم ، ويقيم حدودهم ، ويحفظ بيضتهم ، ويحرس حوزتهم ، ويعبىء جيوشهم ، ويقسم غنائمهم ويتحاكمون اليه فى خصوماتهم ، وينصف المظلوم وينتصف من الظالم ، وينصب القضاة والولاة فى كل ناحية ، ويبعث القراء والدعاة الى كل طرف » . (١)

وقال الايجى صاحب المواقف :

« انا نعلم علما يقارب الضرورة ان مقصود الشارع فيما شرع من المعـاملات والمناكحات والجهـاد والحـدود والمقاصات واظهار شعار الشرع فى الاعيـاد والجمعات — انما هو مصالح عائدة الى الخلق معاشا ومعادا . وذلك لا يتم الا بامام يكون من قبل الشرع يرجعون اليه فيما يعن لهم » (٢) .

ويقول الجرجانى :

« نصب الامام من اتم مصالح المسلمين ، واعظم مقاصد الدين » .

---

(١) نهاية الاقـدام فى علم الـكلام نقلا عن كتاب النظـريات السياسية الاسلامية .   (٢) المرجع السابق .

ويقول ابن تيمية :

« يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من اعظم واجبات الدين ، بل لا قيــــام للــــدين الا بها ، فان بنى آدم لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع بعضهم الى بعض ، ولابد لهم عند الاجتماع من الحاجة الى راس . حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

« ولان الله اوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولايتم ذلك الا بقوة وامارة . وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل ، واقامة الحج والجمع والاعياد ، ونصر المظلوم واقامة الحدود .. وكل ذلك لا يتم الا بالقـــوة والامارة .

« ولهذا روى « السلطان ظل الله فى الارض » .. وكان السلف الصالح كالفضيل بن عياض ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما يقولون :

« لو كانت لنا دعــــوة مســــتجابة لادخــرناها للسلطان » .. (١)

— ٥ —

واجماع المسلمين هذا على ضرورة قيام الدولة المسلمة مستمد مما انتظمه القرآن والسنة من آيات وتوجيهات ، ومن نهج الخلفـــاء الراشدين الذين قال الرسول عنهم :

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهـديين من بعدى . عضوا عليها بالنواجذ » .

كما أنه مستمد بعد ذلك من حركة الاسلام خلال التاريخ الطويل

اما عن القرآن ، فالقرآن مملوء بالآيات التى تدعو المسلمين الى حكم الله .

والفعل ـــ حكم جاءت مشتقاته فى القرآن بمعنى «الحكومة» التى تقضى وتفصل وتقود .. وجاء بمعنى « الحـكمة » .. وجاء بمعنى الاحكام والاتقان .. وجاء بمعنى الغلبة والاقتدار .. فلا يجوز الخلط بين هذه المعانى ، ولا يجوز مثلا حمل آيات الحكم على معانى الحكمة أو الاحكام ، أو الاقتدار ، لان معنى الحكم فيها واضح ومبين .

فمن آيات « الحكمة » قوله تعالى :

« ويعلمهم الكتاب والحـكمة ـــ وما انـزل عليـكم من
« الكتاب والحكمة ـــ آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة
« وانـزل الله عليك الكتـاب والحـكمة ـــ ادع الى
« سـبيل ربك بالحـكمة ـــ ذلك مما أوحى اليك ربك
« من الحكمة ـــ ولقد آتينا لقمان الحكمة ـــ واذكرن مايتلى
« فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ـــ وشـددنا ملكه
« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

ومن آيات « الاحكام » والغلبة قوله سبحانه :

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم

« الحكيم — فاعلموا أن الله عزيز حكيم — ولو شاء الله
« لأعنتكم أن الله عزيز حكيم — هو الذى يصوركم فى
« الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم — ثم
« ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم —
« وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم — وهو
« القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير — وكلمة الله هى
« العليا والله عزيز حكيم . . »

فى هذه الآيات الكريمة يتحدث القرآن عن الحكمة بمعناها . . وعن الاحكام بمعناه . . وعن الغلبة والاقتدار بمعنيهما .

أما لفظ الحكم بمعنى القضاء والفصل وبمعنى الحكومة ايضا فقد ذكره القرآن ستا وسبعين مرة (١) وحسبنا هنا ايراد بعض الآيات التى تشير بوضوح الى أن الاسلام له دولته التى تحكم بما أنزل الله والتى تجعل العدل شرعتها ومنهاجها .

يقول القرآن العظيم :

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما أراك الله . . »

فالقرآن لم ينزل على قلب الرسول ليتعبد به المؤمنون فحسب

---

(١) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم لطيب الذكر المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى .

بل وليكون — اولا — منهجا للحكم يحكم به الرســول امته المسلمة بما اراه الله اى بما رسم له فى هذا القـرآن من سبيل وما قنن فيــه من قانون .

ويؤكد القرآن هذا الدور لرسول الله قائلا :

« فاحكم بينهم بما انزل الله — وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم » . . .

ثم يؤكد له ضرورة الالتزام بحكم الله فيقول :

« واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك » . .

وليس هذا الخطاب قاصرا على الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو دعوة مفتوحة لكل مسلم يلى أمر المسلمين .

يقول الله تعالى :

« ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى أهلهـــا ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » . .

والامانات هنا لا تعنى تلك الودائع التى يســتودعها بعضنا بعضا فحسب بل تعنى — أولا — مسئولية الحــكم التى هى أمانة ائتمن الله عليها الحاكمين .

واداؤها الى اهلها يعنى العدل فى تنفيذها والقيام بها ، كمــا يعنى اشراك الشعب فى هذه المسئولية بكل الوســائل التى تجعل مشاركته فى الحكم مشاركة فعالة وحقيقية .

والحكم بما انزل الله وبما شرع لعبــاده ، وبناء الــدولة التى تلتزم هذا النهج كان من بين وظائف الرسول عليه السلام .

ولم يُنزل الله كتابه لنلهو به . بل هو ينقل الينا حكم الله الذى ارتضاه للناس ، ولا يرضى بغيره بديلا عنه .

يقول سبحانه :

« والله يحكم لا معقب لحكمه » . .

ليس هنـــاك من يفرض رايه على حـــكم الله مهما تكن عبقريته وقوته .

ويؤكد العلى الكبير هذا المعنى فى هذه الآيات الكريمة :

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم ـــ ان الحكم الا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين ـــ الا له الحكم ـــ ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه ـــ ان الحكم الا لله عليـــه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » .

ويرفض القرآن ويدحض كُل افتيات على حكم الله وكل عدول عنه الى حكم وضعى مريج . فيقول :

« ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ـــ ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون ـــ ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون » . .

ويوبخ القرآن أولئك الذين ينحرفون عن حكم الله الىحكم البشر

« افحكم الجاهلية يبغون ؟ ! ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ ! » .

ويضع حدا فاصلا بين المؤمنين المخبتين الذين أذعنوا لحكم الله

وارتضوا تشريعه وقانونه ، وبين الضالين الذين عموا وصـــموا عما انزل الله من كتاب ..

فيقول عن الاولين :

« انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورســوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا » .

ويقول عن الآخرين :

« واذا دعوا الى الله ورسوله ليحــكم بينهم اذا فريق منهم معرضون » .

ويعلم الرسول ان يقول لاولئك المعارضين والمعترضين :

« افغير الله ابتغى حكما ، وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصـــلا » .

اجل .. كيف يبتغى المؤمنون حكما غير حكم الله وهو الذى انزل اليهم كتابا مفصلا ومحكما وتبيانا لكل شىء ، وارسل اليهم خاتم أنبيائه ورسله يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدعوه ويدعوهم بقوله :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه الى الله » .

ان هــذه الآيات التى سلفت ، يكشف القــرآن بهــا عن أن للاسلام دورا غير هــداية الناس ، هو دور الحــكم والحاكم الذى يحمى ذمارهم ، وينظم حياتهم عن طريق دولته التى يجب أن تقوم وان تبقى ما بقى فى الدنيا اسلام .

ودستور هذه الدولة ماثل فى كتاب الله ، وسنة الرســول ، واجماع الامة ..

واجماع الامة يتشكل وفق ما فى القرآن والسنة من أحكام .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الامر منكم . فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ... »

والقرآن فى الدولة المسلمة هو ابو القوانين فيها . وسنتحدث عن هذا الموضوع ان شاء الله عند حديثنا عن شكل الدولة المسلمة وكيف تنهض وتقوم .

أما الآن وقد تلونا الآيات القرآنية التي تعلمنا انه لابد للاسلام من امام يحكم ودولة تقوم ، فلنتجه صوب السنة النبوية لنطالع رايها فى هذه القضية .

– ٦ –

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الخاصة بقيام الدولة فى الاسلام ، لا نلتقى بآية ولا بحديث يقول : يا أيها الذين آمنوا أقيموا دولة أو اتخذوا منكم اماما وحاكما ، تماما كما لا نلتقى بآية تقول أو بحديث يقول : يا أيها الذين آمنوا تنشقوا الهواء ..!! ذلك أن القضية من البداهة بحيث لا تتطلب أمرا بها ودعوة اليها انما يتجه القرآن وتتجه الاحاديث النبوية مباشرة الى الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها وعن المسئوليات المتبادلة بينها وبين الامة .

ان قيام دولة فى اى أمة أمر بدهى تتطلبه طبائع الاشياء وتقتضيه سنن الاجتماع البشرى .

وهذا ما أدركه الامام على بفطرته وذكائه حين قال :

« لابد للناس من امارة ـــ برة كانت أو فاجرة . .

« قيل : يا أمير المؤمنين ، هذه البرة قد عرفناها ، فما بال الفاجرة . . ؟؟

« قال : يقام بها الحـــدود . . وتؤمن بها الســـبل . . ويجاهد بها العدو . . ويقسم بها الفىء . . »

فقيام الدولة ايا كان لونها أمر ضرورى بقدر ما هو بديهى .

وانما كان اهتمام القرآن والسنة بالنهج الذى تقوم عليه الدولة فى الاسلام ـــ أى بمميزات وخصـــائص وسمات الدولة المسلمة . فاذا قال القرآن للرسول « احكم بينهم » فانه يتبعها بقوله « بما أنزل الله » . . واذا قال له « لتحكم بين الناس » أتبعها بقوله : « بما أراك الله »

ومعنى هذا أن الاسلام ينشد نوعا معينا من الدول والحكومات . هو الذى يلتزم بتعاليمه ومبادئه وتقاليده .

وتعالج أحاديث الرسول الاكرم الموضوع بشمول ووضـــوح . ولنبدأ بهذا الحديث العجيب .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من مات وليس له امام ، مات ميتة جاهلية » .

والمراد بالامام فى الاسلام اذا اطلق ، « الحاكم » أى « الدولة » فأى توكيد لدورها ، بل أى تقديس اكثر من هذا الذى نرى ؟!

لا يحق لاى انسان رشيد أن يعيش فى الفلاة كالحمر الوحشية

ليس له مجتمع يؤويه ولا دولة تحميه . . ومهما يبالغ المسلم فى الفرار بدينه من الفتن ، فلابد أن يكون له انتماء يربطه بأمته ودولته . والا عاش آبقا ، ومات ــ كما قال الرسول ــ ميتة جاهلية .

أن الدين الذى يقول رسوله هذا الحديث لا يمكن أن يتجــاهل قيام الدولة . بل لابد أن تكون الدولة أصلا من أصوله الراسخات .

ثم لنطالع هذا الحديث للرسول عليه السلام :

« كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء عليهم الســـلام .
كلما هلك نبى خلفه نبى . . وانه لا نبى بعدى . وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون . .

« قال أصحاب الرسول : فما تأمرنا ؟؟

« قال : أوفوا بيعة الاول . . . »

فهنا يحفظ الرسول الدولة المسلمة من الانشقاق والتصدع ، ويبين انها ثمرة « البيعة » و « الشورى » بدليل قوله عليه الســـلام « أوفوا بيعة الاول » .

ولكأنما كان الرسول يقرأ ويطالع مستقبل الدولة المســلمة ، وما ستتعرض له من فتن واختناقات . بل لقد طالع هذا المستقبل فعلا حين قال :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » .

يقول الصحابى راوى الحديث « لقد حسبنا خلافة ابى بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، وخلافة على فوجدناها ثلاثين سنة » .

ويأمر الرسول باحترام بيعة الامة للخليفة الذى تختاره بكامل مشيئتها ويدعو الى رفض من نازعه الأمر بغير حق وسلطان ويحكم بتجريمه بل بقتله . . يقول عليه السلام :

« من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم ، فاقتلوه » !!

ومرة أخرى نلفت النظر الى قوله عليه السلام « وأمركم جميع » اى أن الامام القائم ثمرة اجماع من الامة على تنصيبه واختياره .

وتقوم الدولة بكل مسئولياتها تجاه الأمة .

يقول عليه السلام :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالامام راع ومسئول عن رعيته . . . »

والحاكم المسلم يكرس حياته لخدمة الامة واصلاح حالها وامرها وهو لهذا لا يغيب قط عن قضاياها ومشكلاتها . . بل لا يغيب عن حاجة اى فرد من افرادها .

يقول عليه السلام :

« من ولاه الله شيئا من امور المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » . .

والحاكم عادل ومقسط .

« ان المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين — الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا »

والدولة المسلمة لا تخدع الامة ولا تغشها ولا تعاملها بظاهر جميل يخفى باطنا قبيحا .

يقول عليه السلام :

« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » .

والحاكم المسلم وجميع ولاته على الاقاليم مسئولون امام الله ثم امام الناس عن سلوكهم ، وعن مدى التزامهم بتعاليم الاسلام الحنيف

والحاكم مسئول عن ولاته الذين يجب أن يختارهم وفق رأى الاسلام فيهم ، لا وفق هواه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مؤكدا معنى الحديث :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

يقول الامام ابن تيمية (١)

« ويجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين ان يستعمل فيما تحت يده فى كل موضع أصلح من يقدر

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .

عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية ، بل يسكون ذلك سبب المنع .

« فان عدل عن الاحق الاصلح الى غيره ، لاجل قرابة بينهما أو صداقة أو موافقة فى بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية ، أو لرشوة يأخذها منه ، أو غير ذلك من الاسباب ، أو لضغن فى قلبه على الاحق والاصلح ، أو عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون .

« .. ان الوالى الذى يؤدى الامانة مع مخالفة هواه يثبته الله ويحفظه فى أهله وماله بعده .. والمطيع هواه يعاقبه الله بنقيض قصده ، فيذل أهله ويذهب ماله .

« .. قال بعض الناس لامير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين افغرت (افقرت) افواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شىء لهم ، وكان فى مرض موته . فقال : أدخلوهم على ، فأدخلوهم فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : يا بنى ، والله ما منعتكم حقا هو لكم وما كنت لآخذ أموال الامة فأدفعها اليكم .. وانما أنتم أحد رجلين « اما صالح ، فالله يتولى الصالحين .. واما غير صالح فلا أخلف لكم ما تستعينون به على معصية الله ..

ثم يقول ابن تيمية رضي الله عنه :

« فبارك الله له فى ولده وأغناهم حتى ان أحدهم تبرع فى

احدى الغزوات مع الروم بمائة فرس للمجاهدين .

« حدث هذا من عمر بن عبد العزيز وهو خليفة المسلمين من اقصى المشرق ببلاد الترك الى اقصى المغرب بالاندلس .. ومن جزيرة قبرص وثغور الشام الى اقصى اليمن .. ولقد كان نصيب كل من ابنائه من تركته وميراثه أقل من عشرين درهما .

بينما كان هناك احد الخلفاء ، اقتسم بنوه تركته فكان نصيب كل فرد منهم ستمائة الف دينار .. ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء الابناء يتكففون الناس بعد ما أصابهم من فقر وفاقة » ...

اجل ـ الحاكم وولاته مسئولون عن الامة ثبات وجميعا ..

والأمانة والتعفف هما مقياس صلاحية الحاكم والولاة . والذين تصلهم بأموال الناس وظيفة ومنصب فان مسئوليتهم عن الامانة تفوق كل تقدير ..

ان الذى يرى الرسول وهويواجه خيانة من مال الشعب أوسفها فى انفاقه ليرى أمرا عجبا .

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذى طالما التمس المعذرة ورجا رحمة الله للخطائين يقف امام الخيانة او التجوز فى مال الامة وكأنه لا حيلة له أبدا . ولاول مرة نراه يستحى أن يسأل ربه المغفرة لآثم . ذلك لان الآثم هذه المرة خائن ، خان مال الامة وهو عند الله اثم مبين .

اهدى رفاعة بن زيد للرسول عليه السلام خادما .. وفى غزوة

وادى القرى أصابه سهم وهو ينزل رحل الرسول ، فأقبل الصحابة على الرسول يعزونه ، ويقولون : هنيئا له يا رسول الله فقد مضى شهيدا فأجابهم الرسول قائلا :

« وما يدريكم ..؟ ان الشملة التى أخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا » ... !!

شملة .. شمله تساوى درهما أو بضعة دراهم يطارد اثمهـا آخذها حتى وان مات شهيدا .

الا انه لولاء للامانة ليس له نظير .. !!

ان كل قرش يناله وال أو موظف أو حاكم خلسة أو جهرة دون ان يكون له فيه حق لهو غلول وخيانة .

يقول الرسول عليه السلام :

« من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا ، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » .

ان العلاقة بين الوالى والامانة تبلغ فى أحاديث الرسـول عليه الصلاة والسلام مبلغا عظيما من التقديس .. فهو — مثلا — يرفض رفضا مطلقا أن يقبل الوالى أو الموظف هدية — مهما تكن — جـزاء عمل أداه يدخل فى نطاق واجبات ولايته ووظيفته . ان هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة والتفريط فى الحقوق العامة .

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم وقال :

« أما بعد ، فانى أستعمل الرجل منـكم على عمـل مما ولانى الله .

« فيأتى ويقول : هذا لكم ، وهذا أهدى الى . .
هلا جلس فى بيت ابيه حتى تأتيه هديته ان كان صادقا .؟
« والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقـــه الا لقى الله
يحمله يوم القيامة . . اللهم قد بلغت » . . . !!

ان الرسول ليتحدث عن « أمانة الحكم » باهتمام عظيم ، ويلقى تعاليمه الهادية المضيئة الى الحكام ، والولاة ، والقضاة ، والى كل من يحمل مسئولية فى الدولة .

يقول عليه السلام عن الامارة :

« انها امانة ، وانها يوم القيـــامة خزى وندامة ، الا من اخذها بحقها ، وادى الذى عليه فيها » .

ولان الحكم « امانة » ومسئولية عظمى لا يتهالك عليها الا جاهل بفداحتها ، ولقد كان الرسول عليه السلام يرفض أن يولى أحدا ولاية أو امارة يسألها ويرنو اليها .

ذهب أحد أصحابه يوما يسأله ان يوليه احدى الولايات ، فقال:

« انا والله لا نولى هذا الامر أحدا يسأله أو أحدا يحرص عليـــه » . . !!

ويوصى عبد الرحمن بن سمرة قائلا :

« يا عبد الرحمن ، لا تسأل الامارة ، فانك ان ســـألتها وكلت اليها . . وان أعطيتها بغير مسئلةأعنت عليها » (١)

---

(١) راجع كتابنا ـــ كما تحدث الرسول .

قد يكون رفض الحكم أمرا ميسورا للرجل الورع ، لكن الصعب بالنسبة اليه هو تقلد الحكم ، وتحمل مسئولياته الشداد .

ومن المريح لك ان تضع عن كاهلك الحمل الثقيل الذى يؤود الاشداء من الرجال ، ولكن الصعب جدا أن تحمله وتمضى به السنوات الطوال ..

لذلك لا نجد المتهافتين على السلطة الا من بين النهمين لشهوات الدنيا من منصب ومال وجاه والفارغين عقولا وأفئدة .

ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة يتمثل فى قول الامام على كرم الله وجهه :

« أما والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا ما أخذ الله
على العلماء الا يقاروا على كظة ظالم ، وسغب مظلوم ،
لألقيت حبلها على غاربها ، وسقيت آخرها بكأس أولها ،
ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز » ..!!

وكان يوما يخصف نعله ومعه ابن عمه عبد الله بن العباس ، فسأله الامام على :

ـــ ما قيمة هذه النعل ؟؟

قال ابن عباس : لا قيمة لها ..

قال الامام : والله لهى أحب الى من امرتكم ، الا أن أقيم حقا ، أو أدفع باطلا .. !!

* * *

واختيار الدولة لولاتها يجب ان يتم وفق مقاييس الاســـلام . المتمثلة فى ان يكون الوالى كفؤا وعدلا وصادقا وامينا . . ولاة ينصحون الدولة ولا يغشونها ، يواجهون الحاكم ولا يتملقونه . يخلصون للحق ويجعلون ولاءهم له من دون الناس .

يقول الرسول عليه السلام :

« اذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صــدق : أن نسي ذكره . . وان ذكر أعانه . .

« واذا اراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء : ان نسى لم يذكره . . وان ذكر لم يعنه » .

اذن فاختيار الولاة الاكفاء من صالح الحاكم قبل أن يكون من صالح الامة ، والحاكم الذكى ، ، والوالى الذكى أيضا هو الذى لا يبيع دينه بدينا غيره . .

ان الدولة تقف بكل مؤسساتها على الهوة الفــاغرة والمنزلق الوعر اذا هى أسندت امورها لغير الاكفاء والامناء . . واذا هى آثرت المنافقين والجبناء .

واذا كان اختيار الولاة الصالحين واجب الحاكم ، فان اختيار الحاكم الصالح واجب الامة .

وهذا ينقلنا الى الحديث عن شكل الدولة المسلمة وكيف تتشكل وتقوم .

* * *

اذا القينا نظرة على العالم حوالينا الفينا الدولة فى كل بلد انعكاسا للمبادىء والنظريات السياسية التى يمارسها ذاك البلد .. وتتحكم الاوضاع الاقتصادية الى حد كبير فى تشكيل نوعية الدولة ، ورسم خصائصها .

والدولة المسلمة لا تخرج عن هذه القاعدة . فهى انعكاس لمبادىء الاسلام وقواعده وخصائصه .

واول ما يواجهنا ونحن نتحرى هذه الخصائص والمبادىء ، مبدأ الشورى ..

فالاسلام دين الشورى بكل ما تحمله الكلمة من معنى وشمول . وبالتالى فان شكل الدولة القائمة باسمه المستظلة برايته لابد ان يكون « شوريا » وقد تنزل القرآن على الرسول يأمره امرا واضحا وواجبا أن يدبر أمور أمته عن طريق الشورى فيما لم يأت القرآن فيه بحكم صريح .

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه :

« فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك . فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الامر .. فاذا عزمت فتوكل على الله » .

ويلفت الامام الرازى انظارنا الى معنى رائع تعطيه هذه الآية الكريمة . ذلك انها نزلت فى أعقاب « غزوة أحد » تلك الغزوة التى لم يكن النبى يرى فيها الخروج من المدينة لملاقاة قريش خارجها . بيد

أن الاغلبية من اصحابه رأوا غير ما رأى ، فنزل النبى على رأيهم . وخرج على رأس جيشه لملاقاة جيش الشرك ودارت الحرب عند جبل أحد . وحدث فيها ما حدث للمسلمين من محن شداد .

فى اعقاب هذا الذى حدث نزلت الآية الكريمة تقول للنبى عليه السـلام :

« وشاورهم فى الامر » .

اى لا تجعل ما ظهر من خطأ رأيهم سببا لتجنبك الشورى ، فان الخطأ مع الشورى أسلم من الصواب مع التفرد بالرأى ..!!

وهذا الموقف بين الله ورسوله لا غرابة فيه ولا عجب ، مادام الرسول انما بعث ليعلم الناس ويهديهم سواء السبيل .. ان سواء السبيل هنا وفى هذا المجال هى الشـورى التى لا تعـرف الملل ولا الاستعلاء .

اجل .. نزل الوحى عليه بعد ما حدث له ولعمه حمزة ولاصحابه بسبب الشورى ما حدث . نزل ليأمره بالمزيد من الشورى ....!!

ولقد حذق الرسول الكريم الدرس الذى لقنـه الوحى اياه ، فعاش يقدس الشورى فى كل أمر ، ويرسخ ذلك فى روع أصحابه .

فيقول لهم :

« ما تشاور قوم قط الا هدوا لأرشد أمرهم » .

ويصفه صاحبه أبو هريرة رضى الله عنه فيقول :

« لم يكن احد اكثر مشــورة لاصحابه من رســول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد مضى ســلوك الرسول على هــذا النهج من الاهتمــام بالشورى واخضاع كل قراراته لها حتى فى اشــد المواقف وأكثرها حرجا وتجهما . . .

ولنضرب لهذا مثلا آخر :

فى غزوة « الخنــدق » وهى تكاد تكون أخطر الغــزوات التى واجهها الرسول والمسلمون . اذ اقبلت قريش ومن تبعها من اعراب كنانة وتهامة فى عشرة آلاف مقاتل شديدى المراس ومعهم يهود بنى النضير . ومن الداخل كان هناك يهود بنى قريظة نقضوا عهدهم مع رسول الله وانضموا الى الغزاة .

ويكفى فى تصوير هذا الموقف الرهيب أن نستمع لكلمة القرآن فيــه :

« اذ جاءوكم ــ أى الاعداء ــ من فوقكم ، ومن أسفل منكم
« واذ زاغت الابصــار ، وبلغت القلوب الحنــاجر ،
« وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . . !!

فى هذا الموقف الصــاعق رأى النبى أن يقلل من عــدد مهاجميه وذلك بأن يصرف « غطفان » عن هذه الحرب وعن حلفها مع قريش . وفكر عليه السلام ان يرسل الى قائدى غطفان ، ويعرض عليهما ثلث ثمار المدينة وغلتها على أن ينسحبا من الجيش المهاجم ويرجعا بقومهما

وفى هذا الهول لم ينس الشورى ، فعرض الامر على سادة الاوس والخزرج فى المدينة فأبوا هذا الصلح واعتبروه اذلالا لهم وهوانا فنزل عليه السلام عند رايهم مسلما امره الى الله ومترقبا بركة الشورى .. ولقد كانت مباركة حقا ، فقد هزم اليأس جيش قريش وحلفائها ، وسخر الله ريحا وعواصف اقتلعت خيامهم واطفأت نارهم وكفأت قدورهم واذهلتهم عن انفسهم فصاح فيهم «أبو سفيان» صيحة الفرار والخذلان واليأس وانقلبوا الى مكة صاغرين .

* * *

وكان عليه السلام يقول لابى بكر وعمر :

« لو ذهبتما لرأى ما خالفتكما » .

ليس احتراما للشورى وحسب . بل ولأن الشيخين اصبحا بصوتيهما يشكلان اغلبية تجاه الصوت الواحد ، وان يكن صوت الرسول ... !!

ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من اثمن خصال المؤمنين وصفاتهم . قال تعالى :

« وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون .. والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضبوا هم يغفرون .. والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة ، **وامرهم شورى بينهم** ، ومما رزقناهم ينفقون » ..

ولقد اخذ الخلفاء الراشدون بواجب الشورى فى حزم ويقين .

ويحدثنا « ابن القيم » نقلا عن التابعى الكبير «ميمون بن مهران» انه قال :

« كان ابو بكر الصديق اذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فان وجد فيه ما يقضى به قضى به .. وان لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فان وجد ما يقضى به قضى به . فان أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم ان رسول الله قضى فيه بقضاء . فربما قام اليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا ، وكذا .. فان لم يجد سنة سنها رسول الله جمع رؤساء الناس فاستشارهم . فاذا اجتمع رايهم على شىء قضى به « وكان — عمر — يفعل ذلك ... » (١)

فحكومة ابى بكر وعمر لم تكن كما يتصور البعض حكومة « مستبد عادل » .. ولقد عرضت لدحض هذا الراى فى مقدمة كتابى « وجاء ابو بكر » ، وقلت : ان الذين يرون فى ابى بكر وعمر مستبدين عادلين انما يجانبون الصواب .

اولا ، لانهما لم يكونا مستبدين ساعة من نهار .

وثانيا ، لانه ليس هناك شىء اسمه « المستبد العادل » .

فالاستبداد والعدل ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يلتقيان . وان

---

(١) أعلام الموقعين جـ ١ .

احدهما ليختفى فور ظهور الآخر ، لان ابسط مظاهر العدل ان ياخذ كل ذى حق حقه . . واذا كان من حق الناس — وهذا مقرر بداهة — ان يختاروا حياتهم وحكامهم ، ويقرروا مصايرهم ، فان ذلك يقتضى فى نفس اللحظة ولنفس السبب اختفاء الاستبداد .

ولقد كان « ابو بكر ، وعمر » رضى الله عنهما على بصيرة من هذا . وعلى الرغم من انهما والامة معهما كانا خاضعين خضوعا مطلقا لما انزل الله من كتاب فقد أتاحا للمسلمين كل فرص المناقشة والمعارضة والاختيار .

ربما يذهب الظن بالبعض الى أن « أبا بكر ، وعمر » لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لانه لم يكن بجوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمان ودستور ومعارضة وصحافة حرة .

بيد ان وضع المسألة على هذا النحو يشكل خطأ كبيرا . . وانما يستقيم الفهم اذا نحن أجبنا عن هذا السؤال :

— هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية التى عرفها العالم حديثا ، هل كان غيابها عن الدولة المسلمة يومذاك راجعا الى كفران الخليفتين بهذه المؤسسات ؟!

والجواب بيقين : لا — وغياب هذه المؤسسات لا يعنى أكثر من كونه تعبيرا عن نظم ذلك العصر البعيد فى جزيرة العرب بل وفى معظم بلاد العالم منذ الف واربعمائة عام .

لقد حقق الخليفتان على اوسع مدى الجوهر الحى للديمقراطية

من خلال ايمانهما العميق بكرامة الانسـان ، ومن خلال الاشـكال والتطبيقات التى كانت تلائم عصرهما .

- فاذا كانت الدولة المسلمة فى عهديهما لم تشهد قيام معارضـة برلمانية منظمة لفقدان ذلك فى بيئتهما وعصرهما ، فان المعارضة نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال وعميم .

- واذا كانت الدولة يومئذ لم تشهد قيام برلمان يراقب الحاكم ويشرع القوانين ، فان الشورى يومئذ كانت شعيرة من شعائر الله ، وكانت حقا مقدسا للجماعة كلها .

- واذا كان التطور يومئذ لم يهيىء قيام صحافة حرة ، فان الكلمة الصادقة الشجاعة كانت على كل لسان . يصغى الخليفة اليها، ويثيب عليها .. !!

ولو ان الخليفتين العظيمين « ابا بكر ، وعمر » يحكمـان فى عصرنا هذا لأعطيا التجربة الانسانية فى النظام الديمقراطى الرشيد كل احترامهما ، ولانتفعا بها الى ابعـد مدى ، ولاخذا من أشـكالها الحديثة ما يحقق جوهرها ويعبر عن خصائصها .

صحيح أن ذلك لم يكن سيتم بصورة مطلقة . بل كان سـيتم داخل ايمانهما المطلق بالدين الذى آمنوا به واتبعوه .. على أنه مع وجود هذا التحفظ لن ينقص ذلك من قدرهما كحاكمين ديمقراطيين .

ذلك ان أى حاكم ديمقراطى انما يعمل داخل حدود الدستور العادل القائم فى دولته .

وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القـائم فى دولتهما ..

لقد كان للقرآن فى امتهم من الولاء والاجلال والهيمنة اكثر مما للدساتير فى كل دول الدنيا .

ولقد تضمن القرآن العظيم مزيتين من أعظم مزايا الديمقراطية:

اولاهما ــ انه جعل الشورى واجبا مفروضا فى دولة الاسلام .

وثانيتهما ــ انه لم يلزم بطاعة أحكامه واعتناق مبادئه الا من يقره ويختاره ويؤمن به .. اى بلغة عصرنا الحديث : « من يقترع عليه بالموافقة » !!

أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به من أهل الكتاب ــ يهود ونصارى ــ فلهم أن يعيشوا وفق عقائدهم ، ويختاروا اسلوب حياتهم .

صحيح أن القرآن « دستور » لم يضعه الشعب ، ولكنه دستور رضيه الشعب ، وآمن به واقترع عليه ، واستشهد فى سبيله

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وساروا معه آمنوا بأن القرآن وحى من عند الله وعليهم طاعته ، ولم يكرههم احد على الايمان به .

ولقد حمل « الصديق ابو بكر » بعد الرسول مسئولية قيادة الامة وفق هذا الايمان .

ثم حمل « الفاروق عمر » المسئولية بعد أبى بكر وفق هذا الايمان ايضا .

واذن فالمعيار الصحيح الذى يوزن به حكمهما وديمقراطيتهما هو مدى احترامها لهذا القرآن .. لهذا الدستور ، الذى آمن به المسلمون واختاروه قانونا ومنهجا لحياتهم .

* * *

ولقد تحدث الفقهاء طويلا عن كون الشورى ملزمة أم غير ملزمة اى هل ينتهى دور الشورى عند ابلاغ الخليفة أو الحاكم بها ثم له بعد ذلك ان يأخذها وان يرفضها .. وبهذا تكون غير ملزمة .. ؟ أم أنها ملزمة وواجب على الحاكم الاخذ بها .

وعندى أنها ملزمة ، ثم ملزمة ، ثم ملزمة .. ولو لم تكن كذلك لما كان من ورائها جدوى ولا فائدة ..

لانه اذا كان المراد من الشورى تقليب وجهات النظر وصولا الى الصواب ، فان فى الوحى غناء عن هذه المحاولة . ولن يعقل أن يتخلف الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف خطير كموقف الحرب فى غزوة أحد وغيرها .

واذا كان الغرض من الشورى مجرد ترضية شكلية للمسلمين فان فى ذلك احباطا وتثبيطا ، بل واهانة للشورى وللمستشارين يجل عنها مقام الرسول .

اذن يتعين أن يكون المراد من الشورى تمكين الامة من حقها فى أن يكون لها راى محسوب فى تقرير مصايرها ، ويكون هذا الموقف بين الرسول والمسلمين مقصودا لتدريب الامة على يد رسولها وقائدها .. تدريبها على ممارسة حق الشورى الذى هو من أهم وأجل حقوقها .

ثم ان مواقف الرسول وخلفائه من الشـــورى تدحض الراى القائل بعدم الالزام . .

ان الرسول الذى كان معه الوحى يصبحه ويمسيه ، أمره الله وأوجب عليه أن يشاور اصحابه .. ورأينا كيف خضـــع للشورى فى أشد المواقف هولا وضراوة .

* * *

ولكن ماذا تعنى « الشـــورى » بلغـــة عصرنا الحـــديث الذى نعايشه ولا نستطيع منه فكاكا . وقديما قيل ، ولعله حديث نبوى .

« الناس بزمانهم ، أشبه منهم بآبائهم » .

ما الشكل الذى يجب على الدولة المسلمة أن تكونه وفقا لمبدأ الشورى ، ومتابعة لروح العصر .. ؟؟

هل يكفى اليوم أن يكتفى الحاكم بمشاورة أهل الحل والعقد ، والشعب هناك قابع فى مسكنة وضياع كالمقعد الضرير .. ؟!

ومن هم أهل الحل والعقد .. ؟!

ان هذا السؤال يرفض كل تجاهل له ، ويدحض كل جبن عن مواجهته .

وعندى أن المفهوم الحديث للشورى التى زكاها الاسلام هى : الديمقراطية البرلمانية ..

أن ينتخب الشـــعب نوابا عنه يمثلون ارادته ومشـــيئته ، ويختارون أو يختار الشعب كله معهم الحـــاكم الذى يرأس الدولة ويقودها ــ ويكون هؤلاء النواب حراسا على حقوق الامة لدى الدولة

يؤيدون الحاكم اذا صلح ، ويقاومونه او يعزلونه اذا زاغ وانحرف .

وهؤلاء النواب عندى هم « أهل الحل والعقد » لا سيما اذا طعم المجلس النيابى فى أمة ما ببعض الكفايات المتخصصة ولو بالتعيين المحدود .

وهذه الديمقراطية تفتح ذراعيها للمعارضة داخل المجلس وخارجه عن طريق البرلمان والصحافة وكل وسائل الاعلام ، فان الديمقراطية بلا معارضة تعنى الديمقراطية بلا ديمقراطية ... !!

وقديما قلت :

« ان افضل علاج لاخطاء الديمقراطية ، هو المزيد من الديمقراطية » ...

هذه حقيقة نود للمستمسكين بالدولة الاسلامية ان يعوها جيدا .. فلا يقولوا احدهم : نظام دولتى الشورى ثم يمضى !! لابد من ترجمة هذه الكلمة الى منهج سياسى مفصل ..

ولقد افضى بى البحث الى أن الشورى هى اليوم «الديمقراطية البرلمانية » ولا تزيد ..

ولن يكون ثمة حرج ولا بأس ان نحن اضفنا الى تراثنا السياسى بعض النظم السياسية المعاصرة ، فان مجرد استخدام الاسلام لها وتدثيرها بجوهر مبادئه سيجعلها اسلامية ، كما أصبحت بعض الكلمات الأجنبية فى القرآن عربية بمجرد استخدام القرآن لها.

ان الحكم فى الاسلام ليس حكما مطلقا ، ولا تسلطا وقهرا . ولكنه حكم شورى . حكم ديمقراطى بأصدق معانى هذا التعبير .

وهو فى نفس الوقت عقد بين الله والحاكمين ان ينشروا الايمان ويقيموا العدل ، ويكونوا أمناء على مصالح الناس ومصايرهم .

* * *

وبالتفسير الذى اسلفناه للشورى ندرك فى وضـــوح أن الحاكم ليس ملاكا يتنزل على الناس من الســـماء . . انما هو بشر ، ومواطن يختاره الشعب بكامل حريتـــه ومحض ارادته ليحفظه ويقـــوده وفق الدستور والقانون .

ورئيس الدولة فى الاسلام ، ليس من يشغل منصـــبه بالتعيين ولا بالوراثة ، ولا بالعهد الذى لا تقره الامة وترضاه .

ذلك أن الامامة لا تنعقد لاحد الا بالاختيار والاتفاق .

قال علماء الفقه « الامامة عقد » فالبيعة شرط أساسى لقيـــام رئيس الدولة . . اذ العقد يكون دائما بين طرفين ، والطرف الاول لعقد الامامة هو الامة (١) .

يقول البغدادى فى كتابه « أصول الدين » :

« قال الجمهور الاعظم من أهل السنة ومن المعتزلة ومن الخوارج ان طريق ثبوت الامامة هو الاختيار من الامة » .

ولهذا نجد أن الامام عندما يريد ترك الامامة فليس ثمة من يملك حق اعفائه سوى الامة ، وهـــذا يدل على انهـــا هى التى تملك حق توليته ــ هذه نظرية الاسلام .

---

(١) النظريات السياسية الاسلامية .

فالامامة او الخلافة هى حق الامة ، والامة فى الاســـلام هى مصدر السلطات .. وهى بمجموعها أو عن طريق نوابها المنتخبين منها التى تختار رئيس الدولة الذى لن يكون أكثر من وكيـــل للامة يصرف أمورها وشئونها .

وقد يبدأ اختيار الامام من اهل عاصمة البلاد التى سيحكمها ، ولكن ذلك لا يكفى ، بل يتبعه بيعة الامة كلها بنفسها أو بنوابها .

يقول الماوردى (١) :

« وليس لمن كان فى بلد الامام على غيره من اهل البـــلاد فضل مزية .. وانما صار من يحضر ببلد الامام متوليـــا لعقد الامامة عرفا لا شرعا لسبق علمهم بموته ، ولأن من يصلحون للخلافة فى الاغلب موجودون فى بلده » .

ويقول أيضـــا :

« ان عقد الامامة عقد مراضاة واختيار ، لا يداخله اكراه ولا اجبار » .

وهناك تعريف رائع للامام قاله الامام « احمد بن حنبل » عندما سئل عن معنى قول الرسول عليه السلام : من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية ـــ فقال احمد :

« أتدرى من الامام ؟؟

« الامام هو الذى يجمع عليه المسلمون . كلهم يقـــول : هـــذا امام » ..

---

(١) الاحكام السلطانية .

ولابد لتوضيح هذا الامر من الرجوع الى عهد الخلفاء الراشدين لتوضح بعض ما عساه أن يبهم علينا .

فالخليفة الاول « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه تم اختياره لا تعيينه . اذ لم يعهد الرسول لاحد بالخلافة من بعده — وفى هذا اشارة واضحة الى أنه عليه السلام احتفظ للامة بحقها فى الاختيار .

تمت الخلافة لابى بكر بالبيعة من بعض المسلمين يوم السقيفة ومن بقيتهم فى اليوم الثانى ، ثم توالت البيعة من الأنحاء .. صحيح أن « عمر بن الخطاب » هو الذى بدأ بالبيعة وصمم عليها . ولكن ذلك لا يعنى أنها كانت بيعة فرد بل كانت بيعة أمة . بيعة المهاجرين والانصار الذين كانوا قد بايعوا الرسول من قبل وآزروه ونصروه .

يقول ابن تيمية فى كتابه « منهاج السنة » .

« لو أن عمر وطائفة معه بايعوا أبا بكر ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر أبو بكر اماما بذلك — وانما صار اماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة » ..

وكذلك يقول الامام الغزالى : (١)

«لولم يبايع أبا بكر غير عمر، وبقى كافة المسلمين مخالفين أو انقسموا انقساما متكافئا لا يتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الامامة » .

---

(١) الرد على الباطنية — نقلا عن النظريات السياسية الاسلامية .

وأمير المؤمنين « عمر » نفسه يدرك ذلك ويحض الامة على أن تحتفظ بحقها فى الاختيار .. وفى الخطبة الشهيرة التى القاها عقب عودته من موسم الحج قال :

« .. فمن بايع رجلا عن غير مشورة المسلمين ، فانه لا بيعة له هو ولا الذى بايعه » .

* * *

فأن عهد الامام القائم بالأمر لآخر من بعده ـ كما فعل ابو بكر مع عمر ـ فلابد من توافر شروط الامامة فيمن يعهد وفيمن يعهد اليه من أمانة ونزاهة وكفاءة وورع واخلاص .. ثم لابد من توثيق هذا العهد برضاء الامة أو الاغلبية منها واقراره .

أما توريث ابن أو قريب غير صالح للامامة ، وليس معه من شروطها وصفاتها شيء ، الا ما يصله بالموصى من قرابة أو صهر ، فهذا مناف لروح الاسلام ووجهته .

يقول ابن خلدون (٢) :

« وأما أن يكون المراد بالعهد حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية ، وينبغى تجنبه خوفا من العبث بالمناصب الدينية » .

وعلينا أن ندرك جيدا أن اختيار ابى بكر لعمر لا يعنى فقدان العامل الديمقراطى فى اختيار الخليفة .

---

(٢) المقدمة

فابو بكر اختار عمر لا بصفته الشخصية ، بل بوصفه خليفة نبوأ منصبه هذا باقتراع الامة عليه واختيارها اياه ، فكأنه نقل بيعة الامة منه الى من اختاره .. ثم انه اختار اصلح المسلمين لهذا المنصب فى تلك الظروف .. ثم انه قبل اختياره استشار جمهرة الصحابة وقادتهم .

يقول الطبرى فى تاريخه (١) :

« ان ابا بكر لم يكتب عهده لعمر الا بعد أن استشار كبار الصحابة وهم قادة الراى وموضع ثقة الامة فأثنوا كلهم على عمر . وقال عثمان بن عفان : [اللهم ان علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله]

« ولما اتم استشاراته أشرف على الناس فقال لهم : [أترضون بمن أستخلف عليكم .. ؟] فانى ما الوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة ، فقالوا سمعنا واطعنا »

ثم ، وهذا هو الاهم فان جميع المسلمين فى شتى الانحاء وافقوا يومئذ على تنصيب عمر خليفة ولم يقم أحد بالاعتراض مع قدرتهم على ذلك لو أرادوا بدليل ما حدث فى أواخر عهد عثمان .. وكذلك لم تكن بيعة « عثمان » من الستة الذين اختارهم « عمر » لترشيح الخليفة واختياره . بل كان .. وهنا نترك الحديث لابن تيمية الذى يقول :(٢)

« ان عثمان لم يصر اماما باختيار بعضهم ، بل بمبايعة الناس له . وجميع المسلمين بايعوا «عثمان بن عفان» ولم

---

(١) الجزء الاول : (٢) منهاج السنة .

يتخلف عن بيعته أحد . . قال الامام احمد : ما كان فى القوم من بيعـة عثمان كانت بأجماعهم . والا لو قدر ان عبـد الرحمن بن عوف بايعه ثم لم يبايعـه على ولا غيره من الصحابة اهل الشوكة لم يصر اماما .

« ثم ان ابن عوف حلف انه اقام ثلاثا لم يغتمض فيها بنوم يشاور السابقين الاولين والتابعين لهم بأحسان ، ويشاور امراء الانصار فأشـار عليه المسلمون بولاية عثمـان . وقدموا عثمان وبايعوه ، لا عن رغبة أعطاهم اياها ، ولا عن رهبة اخافهم بها » .

وايا ما يكن الامر ، فان روح الاسلام وروح ما اسلفنا من وقائع ثم روح العصر الذى نعيش فيه تحتمان قيام البيعـة لرئيس الدولـة بالشورى والاقتراع الحر الذى تيسرت اسبابه فأصبح من المستطاع معرفة راى الامة فيمن تختاره لرئاستها وتقترع عليه فى يومين او ثلاثة مهما يبلغ تعدادها وتتسع رقعتها .

وعلى اختيار الشعب لحاكمه يتوقف مستقبله القريب والبعيد

ومن الظواهر الصادقة انه كلما كانت الامة عالية فى مستواها الحضارى ، كان اختيارها لحكامها صائبا وسديدا .

والاسلام يعلمنا ان سوء اختيار الحاكم ايذان بضياع الامة . .

يقول عليه السلام :

« اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة » .

اى اذا ولى الحكم فى امة من الامم من ليس أهلا له ، فانتظر ساعة هذه الأمة تدق معلنة ضياعها وهلاكها ... !!

والحاكم المسلم يحقق أمرين لابد منهما — القدوة الصالحة ، والعدالة الشاملة .

انه يرث رسول الله فى منصبه كقائد دولة ، لهذا كان حتما عليه أن يسير على نهج الرسول ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ويصف الامام على الحاكم المسلم فى شىء من التفصيل فيقول :

« لا ينبغى أن يكون الوالى على الاعراض والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين بخيلا ، فتكون أموالهم نهمته .. ولا جاهلا ، فيقتلهم بجهله .. ولا جافيا ، فيقطعهم بجفائه .. ولا خائفا من الدول ، فيتخذ قوما دون قوم .. ولا مرتشيا فى الحكم ، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع .. ولا معطلا للسنة ، فيهلك الامة » ...

وللدولة المسلمة طاعة أبنائها مادامت متحققة بالدين الذى أقامها ودعا الناس لطاعتها .

يقول عليه السلام :

« اسمعوا واطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله » .

ويقول عليه السلام :

« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

اجل ما اقام فيكم كتاب الله .. أى ما احترم الدستور الذى تحيا عليه وتدين به الدولة المسلمة .

فاذا فسق الحاكم وبغى وظلم فلا سمع له ولا طاعة . بل ولا بيعة . وعلى الامة أن تنبذه وتخلعه .

ذلك أن الدولة كلها وسلطاتها الثلاث جميعا — التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية — كل هؤلاء أمناء على حكم الله وعلى مشيئة الشعب .

وأى نوع من الحكم يعطل كتاب الله الذى هو دستور الدولة المسلمة ويتحدى ارادة الامة ، ويودى بسيادة القانون فلا حرمة له ولا ذمة ولا بقاء .

ولا تنتهى مهمة الامة باختيار الحاكم ، بل تبدأ بهذا الاختيار . وتذهب معه كل مذهب ، وتراقبه وتعاونه على البر والتقوى، وتزجره عن الخيانة والانحراف .

وهذا يتأتى بوجود رأى عام قوى وذكى .

والراى العام فى الدولة المسلمة ضرورة مفروضة ، لانه صمام الامان ، والعين الثاقبة ، والكلمة الطيبة .

والراى العام ، هو ما أسماه القرآن والاسلام [الامر بالمعروف والنهى عن المنكر] .

اجل — هذا هو ما نسميه اليوم بلغة العصر « الرأى العام » . ذلك ان وظيفة الراى العام هى متابعة احداث المجتمع ومراقبة جميع

سلطاته ، وتسليط الضـــوء على الاخطـــاء السياسية والاخلاقية ، والاجتماعية ، ومقاومة كل تحد للدستور والقانون ، وتبصير الآخرين من فئات الشعب بواجبهم تلقاء المواقف والاحداث .

وهذه تماما هى وظيفة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . ودور الراى العام فى الدولة المسلمة دور ترشيد وبناء .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يرضى لكم ثلاثة :

« أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا » .

« وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

« وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

ويقول عليه السلام :

« الدين النصيحة .. قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم » ..

ويقول ايضـــا :

« ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم :

- اخلاص العمل لله
- ومناصحة ولاة الامر
- ولزوم جماعة المسلمين » .

فالنصح للحاكم اول وظائف وواجبات الراى العام .. وكلما كان الراى العـــام مهذبا جاءت نصائحه مهذبة . فالنصح شىء آخـــر غير التشهير به والحقد عليه .

واذا توجه الرأى العام بنصحه فلوى الحاكم جيده وثنى عطفه، فان ذلك لا ينبغى ان يفت فى عضد الناصحين بل عليهم أن يتشبثوا بكلمتهم ويرددوها كالنشيد ، ويذيعوها بين الناس حتى يتكون حولها رأى عام يصبح قادرا على ابلاغها واخضاع الحاكم لها .

وكل حاكم يضيق بالرأى العام ويحاول خنقه فهو فى نظر الاسلام معطل لشريعة من شرائع الله وفريضة من فرائضه .. تلك هى فريضة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

لقد كرم الله هذه الامة المحمدية لانها تحيى شعيرة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال تعالى :

« كنتم خير امة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

واهان ولعن قوما آخرين لانهم تخلوا عن فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال سبحانه :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال عن أحبارهم الذين صمتوا عن كلمة الحق :

« لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم واكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

ووقف خليفة رسول الله ابو بكر يوما خطيبا فقال :

« سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان

الناس اذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر . أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

الى هذا المدى يزود الاسلام دولته ومجتمعه برأى عام فعـــال وبار ونشيط . .

وكما قلنا ، فان محاولة الدولة احباط هذا الرأى العام ووأده يعرضها لمقت الله وســـخرية الناس ويحق عليهـــا المقاومة وضرورة التغيير .

ان الاسلام يدرك أن الحياة الانسانية مكتظة بالخطايا والاخطاء ويدرك أن الله لم يعط انسانا الحقيقة وحده مهما أوتى من بســـطة فى العلم والذكاء .

ويدرك أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة . . من أجل هذا راح يحاصرها ـــ ان صح هذا التعبير ـــ برأى عام يقظ ومخلص ورشيد . ينهنه من كبرياء السلطة ويطامن من غرورها . فاذا تنكر الحاكم لهذا الرأى العام واحتال على اسكاته بالكذب والخديعة ، أو بطش به غير مبق عليه ولا مكترث به فقد حرم نفسه قبل أن يحرم الامة من النور الذى يضىء له الطريق .

والدولة كما نعلم ، تقف على رأس التنظيمات السياسية للامة

ولكى ينهض من حولها رأى عام يساندها اذا صلحت ، ويقومها اذا انحرفت ، فلابد لهذا الرأى ان يكون متمرسا بكل مشاكل الامة وقضاياها وعلى وعى عميق بها . . ولابد أن يكون له من الفكر السياسى نصيب موفور . اذ كيف يكون له رأى فى القضايا السياسية دون أن يكون له علم بها ؟!

ومن هنا نرى ان الاسلام عبادة وسياسة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

فالمسلم الذى يقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، ثم ينفض يديه من مشكلات أمته ، ويتخلى عن واجبه المحتوم فى الاهتمام بأمر الامة المسلمة لا يكون منها ولا يحسب عليها .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لان امشى فى حاجة اخ لى حتى تقضى أحب الى من أن أعتكف فى مسجدى هذا شهرا » . . !!

هذا فى حاجة فرد . . فكيف بحاجات أمة ، ومشكلات مجتمع ، وسياسة دولة . . ؟ !!

— ٨ —

والدولة الاسلامية دولة دستورية لها دستور ينظم حياتها السياسية ، ويكفل حقوق الأمة عليها وحقوقها على الأمة . ولها قوانين سائدة ومتطورة فى حدود علاقاتها بالدستور .

ودستور الاسلام هو القرآن ، والسنة ، والاجماع .

القــرآن أولا . . ثم تأتى الســنة والاجماع ومعهما الاجتهــاد ليفصــلوا من القرآن ما أجمل ، ويوضــحوا ما أحكم . ويأتى الفقه الاسلامى فيضع القوانين المستنبطة من كتاب الله ، وسنة رسوله . واجماع أمته ويثرى الاسلام اثراء هائلا وعظيما .

والقرآن دســتور الدولة المسلمة يمتاز عن كل دساتير الدنيــا ماضيها ، وحاضرها ، ومسـتقبلها بأنه ليس من صنع البشر ، بل تنزيل من حكيم حميد .

وهو بهذه المثابة فوق كل محاولة للتمرد عليه أو التغيير فيــه . ثم هو بهذه المثابة ايضا أكثر دساتير البشر تمكينا للاستقرار والرسوخ مع قابلية فذة وذكية لكل مسايرة لروح العصر وتطور الأنظمة ، وان الانسان ليقع فى حيرة شديدة كلما رأى حكومات اســلامية ومجتمعات اسلامية تتخذ القرآن مهجورا . . !!

ان دستور الدولة الاسلامية هذا فوق كل عصيان أو مخالفة . . هذا هو مكانه الذى بوأه الله اياه . . حتى الرسول الذى أنزل عليه لا يملك مخالفته أو تغييره .

ونحن نعلم أن وجود حــكومة ما يعنى أن هناك قانونا يطــاع ويسود . فوجود حكومة اسلامية يعنى اول ما يعنى اجلال دستورها والخضوع لقوانينها .

ولقد جاء الاسلام بدستوره الالهى « القــرآن » ثم وسع الفقه الاسلامى كما ذكرنا من قبل دائرة التقنين والتشريع بحيث فصل وقنن كل علاقة الفرد بنفسه، وبأسرته، وبجيرانه، وبمجتمعه، وبحكومته ، وبعالمه الفسيح كله . . وقبل هؤلاء جميعا وطد علاقة الانسان بربه .

واذا كان تحكيم الدستور وطاعته واجب الأمة ، فهو أولا وقبلا واجب الحاكم .

فالحاكم المسلم الذى لا يحكم الدستور القرآنى ، يصعب جدا الاعتراف له بأنه حاكم مسلم .

لقد ربط القرآن طاعة أولى الامر بطاعة الله ورسوله فقال :

« اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » .

ولعله لحكمة ما ، لم يقل : واطيعوا اولى الامر منكم اذ اعتبر طاعتهم امتدادا لطاعة الله ورسوله مادام حكمهم امتدادا لشريعة الله ومبادىء رسوله .

من اجل هذا كانت أول كلمات استقبل « ابو بكر الصديق » بها المسلمين اثر مبايعته :

« اطيعونى ما أطعت الله ورســوله ، فاذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

ومعنى هــذا ان الحاكم المســلم الذى يعصى الله فى حكمه ، ويجحد قرآن ربه ، يوقع فى نفس الوقت وثيقة عزله . .

ومن اجل هذا راينا « الفاروق عمر » يستهل اللحظات الباكرة من خلافته بسؤال وجهه الى حشود المبايعين :

« ما تقولون اذا ملت براسى هكذا ؟؟ » .

فيجيبه احد الصحابة وقد انتضى سيفه وشق به الهــواء :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!

فيتهلل وجه « عمر » ويقول :

« الحمد اله الذى جعل فى المسلمين من يقـــوم اعوجاج عمر بسيفه » ..!!

ارأيتم .. ؟؟

ان الرجل الذى يتحدث بهذه الكلمات هو الذى سيورثه الله عما قريب ملك كسرى وقيصر .

الرجل الذى كان أصحابه يرقبون ابتســـامته ترقب الاهلة من طول كظمه شفتيه خوفا من الله وتوقيرا له ، وفرقا من مســـئولياته أن يزل فيها او ينوء بها .

والرجل الذى خلق ليقـــود عالما ، والذى رزق طبيعة تقتلهـــا الراحة ويغريها العمل بالعمل (١) .

هذا هو الرجل الدى يتهلل وجهه ويتلألأ الحبور على جبينـــه عندما يرى سيفا يلوح به صاحبه وهو يقول لامير المؤمنين :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!!

* * *

ولماذا نعرض عن القرآن ؟؟

لماذا نتهيب الحكم به والتسليم له ؟؟

---

(١) راجع كتابنا « بين يدى عمر » طبعة دار المعارف .

انستطيع ان نحكم انفسنا بخير منه ؟؟ ايستطيع عباقرة التشريع ان يتفوقوا عليه ، ويأتونا بأفضل منه ؟؟

هذا الذى نقل الينا كلمات الله عنه فقال :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه » .

« كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور »

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » .

« أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .

انه دستور لا يزاحم ولا ينافس ولا يضاهى به سواه وليس أمام الدولة المسلمة أى خيار فى ان تأخذ بعضه وتذر بعضه . وان فعلت صمها تأنيب الله وهو يقول :

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . . ! ؟
« فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا
« ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب ، وما الله »
« بغافل عما تعملون » . . !!

كل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين وآداب موجود فى اسلامنا . . موجود فى قرآننا العظيم . . وليس ثمة ما يدعو الى هجر القرآن ، ولا الى هجر الاسلام اللذين ارتضاهما الله لنا كتابا ودينا .

— ٩ —

ولكن ما منهج الدولة المسلمة فى العلاقات الدولية . . ؟

وهل هى دولة حرب أم دولة سلام . . ؟

اما منهجها فى العلاقات الدولية فتوضحه آية من آيات دستورها « القرآن » تلك التى تقول :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم . ان الله يحب المقسطين

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، واخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فالدولة المسلمة مأمورة من ربها ، ومدعوة من دستورها الى ان تقيم تعايشا سلميا بينها وبين كل دولة لا تقدم اليها الأذى ولا تحوطها بالمؤامرات .

ووفق الآية السالفة ، فان كل من لم يقاتلنا فى ديننا ، ولم يخرجنا — نحن المسلمين — من ارضنا ، ولم يظاهر غيره على اخراجنا فله مودتنا الخالصة وتعاوننا الوثيق .

وبالعكس ، فان كل من يقاتلنا فى ديننا ويخرجنا من ارضنا ، أو يظاهر الذين يخرجوننا ، فليس له الى مودتنا ولا الى صداقتنا سبيل .

هذا هو موقف الدولة المسلمة من العالم الذى حولها توضحه الآية الكريمة فى ايجاز مبين .

والهيئات الدولية التى تقوم والمواثيق الدولية التى تنشأ تأخذ الدولة المسلمة مكانها بينها وتحمل تبعاتها منها ، فلا تهدم بنيانا ولا تحنث بعهد وميثاق ، ذلك أن دستورها يأمرها :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » .

« وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا » .

ولقد أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات كثيرة تميزت بنشدانها السلام وتوكيدها على المشاركة العادلة فى خدمة المتعاقدين ولم يحدث أبدا أن نكث الرسول بعهد أعطاه أو موثق أمضاه .

ويصلنا الحديث بالسؤال الذى طرحناه آنفا :

هل الاسلام دين حرب أم دين سلام ؟

وعندى أن الجواب الصحيح هو أن الاسلام دين عدل .. فعندما تكون الحرب عدلا وتحقيقا للعدل فهو دين حرب . وعندما يكون السلام هو العدل فهو دين سلام .

لا يجبن عن نصرة الحق ، ولا يهرب من تبعات السلام .. والمهم هو سلوك الآخرين . ماذا يريدون للاسلام . الحرب أم المسالمة .. ؟؟

لقد قال الله لنبيه ، وهو فى نفس الوقت أمر للدولة المسلمة :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها . وتوكل على الله . انه هو السميع العليم » .

وامره وامر الدولة حيث تكون بأن تقف موقف الحذر من الذين :

« ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ، ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء . وودوا لو تكفرون » .

ونحن اذ نتتبع آيات القتال فى القرآن — دستور الدولة المسلمة — نجد أن أول آية نزلت آمرة بالقتال والجهاد كانت هذه الآية :

« أذن للذين يقاتلون — بفتح التاء — بأنهم ظلموا . وأن الله على نصرهم لقدير » .

« الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

وكم هو رائع هذا التعبير « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا — بضم الظاء — .

ان اول آية نزلت فى القرآن تبيح القتال وتأذن للمسلمين بمجاهدة عدوهم ، تمنحنا الفهم بأن المسلمين كانوا ممنوعين من حمل السيف ضد عدوهم لعله يرتدع ويتذكر ويخشى ويثوب الى رشده بما يلقونه به من حلم ومصابرة . فلما فشا بغيه واشتدت على المسلمين وطأته ، أذن للذين يقاتلون بأنهم اى لانهم ظلموا . .

فهنا قوم مظلومون مضطهدون ، ورغم قدرتهم على القتال فهم مدفوعون عنه وممنوعون منه حتى جاءهم الاذن من الله الذى هو على نصرهم قدير .

وهذه الآية تبين طبيعة الحرب فى الاسلام ووظيفتها . فهى حرب دفاع ، لا حرب غزو واستعمار وقهر وتسلط .

وكذلك الآيات التى انزلت خلال تطور المجابهة العسكرية بين الاسلام والشرك . بين المسلمين وأعدائهم تلتزم نفس الغاية : الدفاع عن النفس . . والدفاع عن حق الانسان فى اختيار عقيدته وايمانه ونوع حياته ، وحقه فى دعوة الآخرين من بنى البشر الى ما يرى فيه صلاح أمرهم .

فالآيات تقول :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وتقول :

« فان قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم » .

وتقول :

« ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

كل هذه الآيات نزلت تدعو المسلمين الى الدفاع عن أنفسهم ، والى قتال من يقاتلهم ، فلما احتشد أهل مكة مع قبائل العرب واليهود مصممين على الخلاص بالحرب من الاسلام ورسوله نزلت الآية الكريمة :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

ونزلت الآية الكريمة :

« وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين » .

لقد نبأ الله المسلمين بنوايا المشركين واليهود تجاههم فقال :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » ..

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

امام هذا الجموح العنيد من اعداء الاسلام . وامام اصرارهم على افناء المسلمين لا يخجل الاسلام من ان يكون دين حرب وقتال . بل عندئذ يعد الجهاد فى سبيل الله فريضة على المسلمين ويدعوهم ان يهبوا حاملين الراية منتضين السيوف طامحين الى احدى الحسنيين النصر ، أو الشهادة ..

وهو — أعنى الاسلام — لا يترك عندئذ فرصة لجعل المسلمين مقاتلين مستبسلين الا اغتنمها ودق طبول الحرب عندها .

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

« الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم اعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون »

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » .

« .. واقتلــوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحيــاة الدنيــا بالآخرة » .

« ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

« فأمــا تثقفنهم فى الحــرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله » .

« ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

« فاذا لقيتم الــذين كفروا فضرب الرقــاب . حتى اذا

اثخنتموهم فشدوا الوثاق . فأما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ..

اجل — لا يسوء الاسلام ولا ينتقص من قـدره أن يكون دين حرب وقتال اذا جوبه بعداوة حاقدة وهجوم مسلح من أعدائه واعداء ذويه .

لن يدع الاسلام اهله يقفون مكتوفى الايدى وهم يذبحون ، ولن يأمرهم ان يديروا خدهم الايسر لمن يلطم خـدهم الايمن ، لان هـذه مثالية لم ترق اليها بعد طبيعة الانسان .

بل من قاتلك نقاتله .. ومن قتلك فاقتله .

« ولكم فى القصاص حياة » .

« قاتلوهم ، يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » .

* * *

اننا حين نتتبع غزوات الرسول لا نجده قد خرج فى واحدة منها بادئا بقتال ..

- كانت غزوة « بدر » دفعـا للمشركين الذين جاءوا يقتحمون على المسلمين حياتهم الجديدة فى المدينة ..

- وغزوة « أحد » كانت دفعا للهجوم الكاسح الذى شنه المشركون الذين جاءوا فى ثلاثة آلاف مقاتل ، بينما خرج الرسول بألف رجع

ثلثهم من منتصف الطريق بتحـــريض زعيم المنـــافقين عبد الله بن أبى بن سلول .

- ويجىء قوم الى الرسول يرجونه ان يرسل معهم وفدا من أصحابه يعلمون قومهم القرآن والاسلام . وفى الطريق غدروا بهم وقتلوهم فكانت غزوة « بنى لحيان » .

- لقد قتل المجرمون نفرا من خيار اصحاب الرســـول . ولما علموا بخروج الرسول اليهم هربوا وتمنعوا فى رءوس الجبال وعلى الرغم من أنه لم يدر قتال ، فقـــد تعلم خصوم الاســـلام أن دم المسلم ــ أى مسلم ــ غال وعزيز .

- ويحاول اليهود من بنى النضير اغتيال الرسول عليه الســـلام ، فيخرج اليهم ويحـــاصرهم .. حتى اذا توســـلوا اليه ان يتركهم يغادروا المدينة الى خيبر سمح لهم بذلك مع علمه تماما أنهم فى « خيبر » سيحرضون عليه قريشا والقبائل .

- وقد حدث هذا فعلا ، فقد ذهب يهود بنى النضير هؤلاء يحرضون على الرسول قريشا وسائر العرب ، ويحزبون ضـــده الاحزاب حتى فوجىء المسلمون ذات يوم بعشرة آلاف مقاتل يهـــاجمون المدينة ــ وكانت هذه غزوة « الخنـــدق » التى رد الله المشركين واليهود بغيظهم مدحورين .

- وفى غزوة الخندق هذه قام جمـــاعة اخرى من اليهود ، هم يهـــود بنى قريظة بخيـــانة بشعة مولين ظهـــورهم لما كان بينهم وبين الرسول من عهد .وكادت خيانتهم هذه تودى بالاسلام وبالمسلمين فكان لابد من تأديبهم . وهكذا كانت غزوة « بنى قريظة » .

- ولا يكاد الرسول والمسلمون يستريحون حتى تأتيهم الانباء بأن بنى المصطلق قد خرجوا لحربهم تحت قيادة الحرث بن ابى ضرار ، فكان لابد من ملاقاتهم وهكذا كانت غزوة « بنى المصطلق » التى هزم فيها الجيش المعتدى هزيمة ساحقة .

- ولا يكف اليهود عن التآمر ضد الرسول والاسلام ، ولا يقفون عن الدس والارجاف . وغرتهم مصابرة الرسول لهم . بل ومحافظته على كل حقوقهم واحترام شعائرهم فحشدوا جموعهم للاغارة على المدينة . وتزعم هذه المحاولة يهود خيبر ، فاضطر الرسول للخروج اليهم واسكات صوتهم الى الابد . .

- وتوجس الروم من الاسلام خيفة ، وصاروا يرون فيه خطراً يهددهم لا سيما فى بلاد الشام التى يستعمرونها والتى تتاخم بلاد هذا الدين الجديد . وهكذا راحوا يتخذون من الشام مركز شغب ووثوب وتجرا حلفاؤهم الغساسنة على قتل الرسول الذى بعثه النبى اليهم بكتاب يدعوهم فيه الى الاسلام ، وازداد تحرش الروم وتنمرهم وراحوا يحشدون جيشهم على الحدود فلم يكن بد من أن يخرج المسلمون اليهم وكانت هذه غزوة « مؤتة » .

- وينقض أهل مكة معاهدة الحديبية المبرمة بين الرسول وبينهم رغم ما أعطاهم الرسول فيها من تنازلات كادت تعصف بايمان بعض المسلمين . ومع هذا ففى السنة الثامنة للهجرة نقضت قريش عهدها ، واغارت على حلفاء الرسول الذين استنصروا به فلم يكن بد من نصرتهم وهكذا كان فتح مكة العظيم . . !!

- ولا يكاد الرسول يتهيأ للراحة قليلا حتى يناجأ بعد خمسة عشر

يوما من فتح مكة بقدوم هوازن وثقيف فى جيش لجب يريدون قتال الرسول والمسلمين ، فكان لابد أن يخرج للقائهم ، وهكذا كانت غزوة «حنين» ثم حصار الطائف .

- ثم لا يمر الا زمن وجيز حتى يفاجأ الرسول بحشود هائلة من الروم تتجمع على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، فكان لابد أن يخرج الرسول اليهم على راس جيش عظيم — وهكذا كانت غزوة « تبوك » التى هى آخر غزواته عليه الصلاة والسلام والتى انتهت دون قتال .

فأين فى ذلك كله روح العدوان ؟! اين حب المغامرة الشريرة والقتال الباغى .. ؟!

الا ان الاسلام دين القتال ما كان القتال عدلا .. ودين السلام ما كان السلام عدلا .

والدولة المسلمة مامورة بالتزام هذا النهج دون افراط ودون تفريط .

— ١٠ —

ودولة الاسلام حصن حصين للاقليات التى تعيش معها وبين مواطنيها ، لا سيما حين تكون هذه الأقليات أهل كتاب او أهل ذمة كما يسميهم الاسلام .

ان الدولة الاسلامية مامورة من الله ومن رسوله برعاية حرماتهم وحفظ حقوقهم، وتركهم احرارا فى العيش وفق معتقداتهم

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من قتل معاهدا ، حرم الله عليه الجنة » .

ويقول عليه السلام :

« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو اخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وعن العرباض بن سارية السلمي رضى الله عنه يقول :

« نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا ، فاقبل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ايحل لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا ..؟

« فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن عوف . اركب فرسك ثم ناد : ان الجنة لا تحل الا لمؤمن وان اجتمعوا للصلاة ، فاجتمعوا ثم صلى بهم عليه السلام ثم قام فقال : ايحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما فى القرآن .. ؟!

« الا وانى والله قد وعظت وامرت ونهيت عن أشياء انها لمثل القرآن .

« وان الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب الا باذن ولم يحل لكم ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم اذا أعطوا الذى عليهم » !!

فالاسلام يحفظ حقوق المواطنين جميعا مسلمين كانوا ، أم يهودا او نصارى واذا كان يفرض على اليهود والنصارى « الجزية » ، فكما يفرض على المسلمين « الزكاة » كلتاهما ضريبة تؤدى لبيت المال . بل ان المسلم يدفع الزكاة ويحارب ويتحمل كل مشـــاق القتال أما الذمى يهوديا كان أو نصرانيا فانه لا يحارب ولا يخرج لقتال . . !!

وحين نطالع على سبيل المثال بعض المعـــاهدات التى حررها رسول الله عليه السلام وخلفاؤه من بعده لاهل الكتاب نرى عجبا . .

فلليهود يقول الرسول فى عهده لهم ومعهم :

« ان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . . لليهود دينهم ، وللمســـــلمين دينهم — مواليهم وأنفســـــهم الا من ظلم واثم ، فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته » (١)

ثم يعدد الرسول بقية اليهود الذين لهم مثل ما لبنى عوف من عهـــد .

وفى عهده لنصارى نجران يقول عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمان من اللـــه ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصــــارى — من كان منهم على دين نجران ، أو على شىء من نحل النصرانية كتبه لهم محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة . ذمة لهم من الله ورسوله وعهدا عهده الى المسلمين من

---

(١) كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة . جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى .

بعده . عليهم ان يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم « ليس لاحد من الولاة ، ولا لذى شـيعة من السـلطان وغيره نقضه » .

ثم يفصل حقوق النصارى فى كتاب آخر وعهد آخر وفيه يقول:

« ... للسيد الحارث بن كعب ، ولاهل ملته ، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الارض وغربها .. أعطيهم عهد الله وميثاقه ان احفظ اقاصـيهم ، واحمى جانبهم ، واذب عنهم وعن كنائسـهم وبيعهم وبيـوت صلواتهم وان ادخلهم فى ذمتى واماني ، ولا يهدم بيت من بيوت بيعهم ، ولا يدخل شيء من بنائهم فى شيء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين فمن فعل ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله » .

والميثاق طويل فليراجعه من يشاء فى مصدره (١) وهو ميثاق يزخر بانبل ما فى الانسانية من عاطفة ، وأعظم ما فى الحياة من وفاء ورحمة وصدق ونبل .

وعندما بويع « أبو بكر » جدد العهد لنصارى نجران كرة أخرى:

« هذا ما كتب به عبد الله ابو بكر خليفة محمد رسـول الله صلى الله عليه وسلم لاهل نجران .

« أجارهم بجوار الله ، وذمة رسوله على أنفسـهم ، وارضهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وحاشيتهم ، وعبادتهم ،

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة

وغائبهم ، وشاهدهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير » ..

وكذلك فعل « عمر » فى العهد الذى أعطاه لنصارى المدائن وفارس :

« .. اما بعد فانى اعطيتكم عهد الله وميثاقه ، على انفسكم واموالكم وعيالكم ورجالكم واعطيتكم امانى من كل اذى ، والزمت نفسى أن أكون من ورائكم ذابا عنكم كل عدو يريدنى بسوء واياكم .. وان اعزل عنكم كل اذى .. ولا يغير أسقف من أساقفتكم ، ولا رئيس من رؤسائكم ولا يهدم بيت من بيرت صلواتكم ، ولا يدخل شيء من بنائكم الى بناء المساجد ولا الى منازل المسلمين ، ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين الى عدوهم لملاقاة الحرب ، ولا يجبر احد من النصارى على الاسلام عملا بما انزل الله فى كتابه [لا أكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى] « ولى شرط عليهم : الا يكون احد منهم عينا لاهل الحرب على احد من المسلمين فى سر ولا علانية ، ولا يؤوا فى منازلهم عدوا للمسلمين ، ولا يدلوا أحدا من الاعداء ولا يكاتبوه .. الخ »

فى اى دنيا غير دنيا الاسلام نجد هذا التسامح الفريد .. ؟!

واين هذا مما صنعته اسبانيا المسيحية بالأمس مع مسلمى الاندلس الذين ورثوا الاسبان حضارتهم ومدنيتهم .. ؟!

واين هذا مما تصنعه قوى التبشير المسيحى العالمية اليوم من كيد للاسلام وللمسلمين .. ؟!

ولنقرا الامان الذى اعطاه امير المؤمنين لاهل ايليا ، وهذا نصه كما يرويه الطبرى :

« هذا ما اعطى عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين اهل ايليا من الامان .. اعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم . الا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها شىء ولا من صليبهم ولا من اموالهم ، ولا يكرهون فى دينهم ، ولا يضار منهم احد » .

الا ان اعظم هبات الاسلام لهو التسامح . وهو لا يضفى رواءه على قريبى العهد من الرسول وحسب بل وعلى كل من اعتنق الاسلام وفهمه ووعاه مهما تباعدت به العصور .

وهذا هو الدكتور حسن ابراهيم رحمه الله يحدثنا عن كرامزن أن « ازبك خان » وهو اول من ادخل الاسلام الى روسيا ، وكان شديد التحمس له ودائب الدعوة اليه ، علمه الاسلام كيف يكون التسامح وغرس فضيلته فى فؤاده فتسامح مع رعاياه من المسيحيين ومنحهم الحرية التامة فى اقامة شعائرهم ، وسمح لهم بالتبشير بدينهم ونشره فى بلاده وحرر بهذا وثيقة تقول :

« أن كنيسة بطرس متقدسة ، ولا يحل لاحد ان يتعرض لها ، أو لاحد رجالها بسوء ، ولا أن يستولى على شىء من عقارها أو متاعها ، ولا ان يتدخل فى أمورها . ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها فهو مجرم أمام الله ، وجزاؤه منا القتل » (١) .

---

(١) التاريخ السياسى للاسلام جـ ١ .

الا حيا الله الاسلام ، وحيا اهله وذويه فى كل زمان ومكان .

ان هذه الوثيقة التى نطالعها الآن كتبت فى القرن الرابع عشر الميلادى وهى شبيهة بالعهد الذى قطعه على نفسه أمير المؤمنين فى السنوات الاولى من القرن الاول الهجرى ..!!

وعلى طول ما بين العهدين من قرون ، فكأنهما عهد واحد ، لانهما يسقيان بماء واحد ، وينهلان من روح واحد هو روح الاسلام العظيم الذى قال دستوره الخالد :

« ان اكرمكم عند الله أتقاكم » .

« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

— ١١ —

والاسلام بعد ذلك دين حضارة لا يعرف التخلف ولا الجمود . واذ كانت الحضارة تبدأ بالمعرفة والعلم ، فقد علم الاسلام ابناءه أن يركضوا الى العلم ركضا ، ويتزاحموا حوله بالمناكب ، ويقبلوا عليه اقبال العاشق المشغوف .

والعلم الذى يحض الاسلام اتباعه عليه هو علم الدنيا والآخرة . العلم الذى يزكى النفس ويسمو بالروح ويعرف المسلم حق الله عليه. ثم العلم الذى يجعل الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق الحضارة فى شتى مجالاتها وصنوفها النظيفة .

يقول القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .. ؟

ثم يتوج العلماء بتاج الكرامة حين ينعتهم بأنهم من أكثر الناس معرفة بالله وخشية له :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

والله رب العالمين يدعو عباده الى السعى نحو العلم ويعــدهم بأن يمدهم من فضله بما لا يستطيعون الوصول اليه من علوم الدنيا وعلم الآخرة الا بما يهبهم من عطائه . ويمدهم من علمه :

« ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

ويحضهم القرآن الكريم على افراغ الوسع فى محــاولة كشف المجهول مخبرا اياهم ان لكل نبأ مستقرا ، ولكل مجهول نهاية يحوله العلم بها الى معلوم .

« لكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .

ويدعو اتباعه الى الاستزادة من العلم دون توقف أو تردد :

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

ويمن الله على عباده بأنه :

« علم الانسان ما لم يعلم » .

واذا كان المعلم هو الله فمعنى ذلك انه لا نهاية لما سيصل اليه الانسان من علم ومعرفة ، وهــذا هو السر العظيم الذى يقف وراء المعرفة الانسانية التى لا تعرف النقصان ابدا ولا التوقف . وانما هى من مزيد الى مزيد .

ذلك لأن الله هو المعلم [علم الانسان ما لم يعلم] والمعلم سبحانه

لا حدود لقدرته ولا منتهى لعلمه ، ولهــذا نجده سبحانه يقدم الينــا واحدا من عباده الصالحين فاق غيره فى العلم بالله والعلم بالحياة فيقول:

« وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

وعظمة المسلم ماثلة فى ان الله سبحانه دثره بالعلم الذى يعرفه به وبالعلم الذى يكشف له سعادته فى حياته ودنياه .

واذ يعلم الله ضعف النفس البشرية وانخداعها بمظاهر الحياة الباطلة وركونها اليها فقد دعا عباده المؤمنين ان يجعلوا لشغفهم بالمعرفة كوابح و « فرامل » حتى لا تســلك بهم مســالك الشر والتـدمير ، والا ينقادوا فى غمرة حماسهم وراء العلم الذى يزخرف الحياة ناسين العلم الذى يصلهم بالله ويعرفهم به .

اجل ـــ ان القرآن ليدعو المسلمين الا يكونوا من الذين :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخــرة هم غافلون » .

وهنا يبين الفارق الكبير بين الحضارة التى تشاد على قواعد من علم مغرور ملحد ، والحضــارة التى تشــاد على علم ورع خاشــع لله رب العالمين .

ان الاولى تتحول الى وباء يفتك بالبشرية ويضع مصــيرها على الهوة الفاغرة .. بينما الثانية ترتقى بالانسان روحا ومادة الى آفاق مأمونــة .

ويقودنا الرسول عليه الصلاة والسلام فى طريق المعرفة والعلم قودا حكيما ودءوبا . ويعلمنا فيقول :

« من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله به طريقا الى الجنـــة » .

والعلم النافع المضىء الذى يهـــدى القلوب الى الله ، ويهـــدى العقول الى الصواب ، ويحقق للحياة الانسانية السلام والأمن والتقدم وعافية الحياة هو العلم . . وهو ليس نافلة يتعلمه من يشاء بل هو كما يقول الرسول :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

ويجعل المعاناة فى تحصيله جهاداً .

« من خرج فى طلب العلم ، فهو فى سبيل الله حتى يرجع »

بل اكثر من ذلك يقول عليه السلام :

« من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين الا درجة النبوة » .

« اذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات شـــهيدا »

« لا حسد الا فى اثنتين :

- رجل اتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق
- ورجل اتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها » .

« ان العلماء ورثة الانبياء . ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم ، فمن اخذه أخذ بحظ وافر »

«ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلما رضا بما يصنع»

ونعود الى سؤال المحنا اليه من قبل ، هو أى علم يريده الرسول ؟

انه ــ اولا ــ العلم الذى يفسر للناس أمور دينهم ، ويدفع حياتهم فى طريق الفضيلة والخير ، ويوثق اتصالهم بالله .

« تعلموا الفرائض والقرآن ، وعلموا الناس ، فانى مقبوض » .

ويقول :

« نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها ، وبلغها من لم يسمعها » .

فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتى فى الصدارة من كل العلوم .

وبعدئذ يجىء العلم بكل انواعه . . العلم الذى يشيد الحضارات، وينفع الناس وينمى عطاء الحياة .

فالعلم الذى يقود خطى الحضارة فى رشد، ويسهم فى دفع التقدم الانسانى وينتفع به فى توفير الراحة والخير للناس ــ المسلمون مدعوون اليه .

وفى هذا المجال يقول الرسول عليه السلام :

« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث :

ــ صدقة جارية . .

— أو علم ينتفع به ..

— أو ولد صالح يدعو له .. »

فقوله عليه السلام [علم ينتفع به] ينتظم علوم الحياة التى تنفع الناس وتيسر لهم وسائل العيش ، وتزيد ثراءهم العقلى والروحى .

وهو أيضا المعنى بقول الرسول :

« الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها »

لقد وعى رسول الله قول الله له :

« وفوق كل ذى علم عليم » .

وقوله سبحانه :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

فما هذا العلم الذى لا منتهى لابعاده ولا حصر لعلمائه ؟؟

انه علم الدنيا والآخرة .. علم النسك وعلم الحياة .. علم الكون بكل ما نستطيع أن نصل اليه من كشوف وأسرار .. العلم الذى تتم به عمارة الارض ، وازدهار الحياة ورفعة الانسان .

« اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

فلا حدود من تخوم الارض ، ولا من تخوم العقيدة ترد المسلم عن أخذ العلم النافع والحكمة الصادقة والمعرفة المتساوقة .

فالجهل هو الخطيئة الكبرى التى يعيذ الرسول منها امته .

وكما يقول الاحنف :

« كل عز لا يوجد بعلم ، فالى ذل مصيره » .

ولقد وعى علماء الاسلام روح التوجيه النبوى الكريم فتفوقوا فى كل صنوف العلم وتألقوا ، ثم علموا الدنيا ، وشادوا الحضارات .

وهكذا بلغ العلم ارفع المنازل فى الأمة المسلمة والدولة المسلمة .

وهكذا كان فى كل عصور التاريخ الاسلامى يقود خطى الموكب العظيم الذى ظل يحمل راية التوحيد والايمان والفضيلة والخير والحضارة والتقدم قرونا تلو قرون .

وما نحسب العلم بلغ الغاية فى رشده وهديه ونفعه للناس ، واحيائه للروح وللعقل وللضمير دون انحراف أو زيغ أو تخريب مثلما بلغ من ذلك كله فى ظل الامة المسلمة .. خير أمة أخرجت للناس !!

* * *

فالدولة المسلمة، وهذا مكانها من العلم، وهذه منزلة العلم فيها، أولى الدول بتبنى قضية الحضارة الانسانية والغيرة عليها والاسهام فى بنائها وأخذ الحظ الوافر منها .

وعبر التاريخ نلتقى بالحضارة الاسلامية وهى توقظ العالم من سباته وتعلم أوروبا وغير أوروبا أن تستجيب لدعوة التمدن والتقدم وأن تأخذ مكانها — ولو فى آخر الصفوف — بين موكبها الهادر الذى كانت تقوده حضارة الاسلام وترعاه .

ان الجانب النظيف من حضارة أوروبا والغرب انما ولد فى حجر الحضارة الاسلامية وتغذى بلبانها .

ومن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وغرناطة ، وقرطبة وغيرها

كانت انوار الحضـــارة تشـــع منادية اليها القاصـــدين والرواد من أوروبا وغيرها .

وكانت حضارة تقوم على المادة والروح دون أن تسلم احداهما للاخرى ، ومهما يكن من أمر الانفلات الاخلاقى الذى أصـــاب الدولة المسلمة فى بعض مراحلها فان الجانب الروحى بقى له نفوذه ودعاته والداعون اليه سرا وجهارا .. وليلا ونهارا ..

لقد اكتشف العقل الاســـلامى فى ظل دولته وبمعونتهـــا أروع الـــكشوف فى جميع فروع المعرفة البشرية وفى نفس الوقت كان ثبات ايمانه وشموخه أمرا ملحوظا ومثيرا .

كنا أساتذة العالم فى التجارة ، وفى العلوم بشتى أنواعها ، وفى الكشـــوف والمخترعات ، فى الطب .. فى الادب .. فى الفن .. فى العمارة .. فى الفلك .. فى الكيمياء .. فى الصناعة .. فى الزراعة .

ويوم كان تجار المسلمين يطوفون العالم برا وبحرا بتجارتهم ، كانت أوروبا تقذف بقراصـــنتها يعيثون فى ســـواحلها فســـادا ونهبا وتخريبـــا .

ان اعظم المخترعات التى تبهرنا اليوم يرجع الى آبائنا المسلمين العلماء فضل كشفها .

تقول « زجريد هونكه » (١)

« اننـــا نقف الآن مشـــدوهين متعجبين أمام تطـــور فن الصواريخ العظيم دون أن نســـائل أنفسنا الى من ندين بهذا الاختراع » .

---

(١) كتاب « شمس العرب تشرق على الغرب » .

ثم تثبت أنهم آباؤنا العرب المسلمون هم الذين يدين لهم الغرب والشرق بهذا الاختراع اذ كانوا أول من وضع نظرية تركيب البارود المندفع فى القرن الثانى عشر .

وعلوم الرياضيات والفلك والبصريات والحساب والجبر والارقام وعلم طبقات الجو ـــ الارصاد الجوية ـــ وعلم الميكانيكا .. واختراع الاجهزة الدقيقة المذهلة التى لا يكاد العقل يصدق أنها اخترعت فى ذلك العصر البعيد .

وفى ظل الدولة المسلمة قام الخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى

وحسب ابن الهيثم ان نظرياته فى علمى الفيزياء والبصريات لا تزال حتى يومنا هذا تحكم العقل الاوروبى الذى يسير فى ضوئها .

وحسب البيرونى انه سبق « كوبرنيكس » وغيره .. سبقهم بخمسمائة عام الى اكتشاف أن الارض تدور حول نفسها ، ثم تدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس ، وأن الشمس ليست السبب فى تفاوت الليل والنهار بل هى دورة الارض ذاتها .

وكان عندنا ابن سينا والفارابى وعمر الخيام .. ومن عجب اننا لا نعرف من عمر الخيام الا جانبه اللاهى ، بينما المغرب وأوروبا يعرفان انه الرجل الذى طور علم الجبر واوصله الى قمة عالية من الازدهار .

« بل ان من الانصاف والحق ان نقول : ان عمر الخيام قد وفق فى الارتقاء بعلم الجبر الى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثيل الا على يد الفليسوف الفرنسى « ديكارت » (١) .

---

(١) المرجع السابق .

ومنا « ابن رشــد » الذى يقــول عنه ج. بيورى فى كتــابه « حرية الفكر » .

«ان أول موجة من النور اضاءت أوروبا كانت مؤلفات ابن رشد»

وبينما كان الطب فى اوروبا واقعا تحت ايدى الدجالين من رجال الكهنوت حيث يعالجون بالشعوذة جميع انواع الامراض حتى الجراحة كانت الدولة المسلمة تزخر بالاطباء المتقــدمين والبارعين فى شــتى التخصصات .

تقول « زجريد هونكة » :

« اين هو البلد الذى عرف الطب بشموليته وعمقه وازدهاره كما كان الطب العربى ؟ واين هى الدولة التى عرفت مثل هذا الجمع الكبير من الاخصائيين فى شــتى حقول الصــحة ، وتركيب الادوية والعقاقير كما كانت الحال عند هذا الشعب ؟ وهل كان للمستشفيات الحديثة فى الاصقاع العــربية آنذاك مثيل فى اى طرف من اطــراف الارض . ؟ .. ان وسائل العلاج عندهم تتحــدث ببلاغة عن عظمة ابحاثهم . كما أن علم الصحة عندهم اروع مثل يضرب .. ولم العجب والدهشة ، والوضع كان كما نعلم .. الم يطالب الفرنجة مســاعدة العرب الطبية ويلحوا فى التماسها » (١) .

اننا حين نقرأ لكتاب أوروبا والغرب عن حضــارتنا فى الطب نجدهم يتحدثون عن مستشفيات كأعظم وانظف ما وصلت اليه أوروبا اليوم ، كما يتحدثون عن أطباء لم ير العالم لهم مثيلا .

---

(١) المرجع السالف .

وانهم ليتحدثون عن الطبيب المسلم أبى بكر محمد بن زكريا الرازى فيصفونه بانه « أحد أعظم أطباء الانسانية اطلاقا » .. !!

ويهيمون هياما شديدا بالعالم المسلم « ابن النفيس » من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ـ وهو أول عالم على ظهر الارض نفذ ببصره الى أخطاء « جالينوس » ونقدها . ثم اكتشف نظرية الدورة الدموية .

وعندنا ابن مسكويه وابن الخطيب والطبيب الطبرى الذين ابدعوا فى مجال الصحة والطب .

وكم من مكتشفات هائلة اكتشفها علماء الاسلام والعرب ، انتحلها وادعاها أوروبيون وظاهرهم على ادعاءاتهم كتاب وعلماء أوروبيون .. !!

ولسنا نحن الذين نقرر هذه الحقيقة المؤسفة بل تقررها المستشرقة الالمانية « زجريد هونكة » فتقول : (١)

« هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن .. هذه التحقيقات العلمية الرائعة التى قدمتها العبقرية العربية الاسلامية هدية منها للانسانية عامة ، ولاوروبا خاصة ، هل رددناها الى مصدرها ، وأرجعنا فضلها الى صانعيها .. ؟!

« لقد كان الامر على العكس تماما ، فان أغلب الاكتشافات العربية [الاسلامية] حملت معها ، ولاتزال

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب .

تحمل حتى يومنا هذا أسماء انجليزية ، أو فرنسية ، أو المانيـــة » .

لقد ظلت مؤلفات آبائنا المسلمين تدرس فى أوروبا مئات السنين ولم يكن فى أوروبا كلها عالم واحد لم ينهل — فى مجال تخصصه — من كتب آبائنا السالفين .

لقــد كان آباؤنا المسلمون ســادة حضـــارة من اعظم واروع حضارات العالم وليس ثمة ما يمنع ، بل هناك ما يدفع لكى نستأنف مسيرتنا الحضارية فى عالم ينقصه مما نملك ، الشىء الكثير .

فالدولة المسلمة دولة حضارة وتقدم ، وهى مسئولة عن تقــدم الحياة مثل مسئوليتها عن دين الله .

يقول مؤلف « الاسلام قوة الغد العالمية » :

« ان قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الاحداث التى مرت بالمسلمين فى القرون الاخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية .

« ان الروح الاسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة ومشاعرهم . وستظل هناك مادام ثمة شعوب اسلامية ربطت مصـــيرها بمصير الاســـلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين اجناسها هو الاسلام .

« ان روح التعاطف والتوادد بين المســـلمين هو السبب الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق « القومية الاسلامية » . . وانه من الممكن للمسلمين أن يتقدموا فى العلم والتكنولوجيا كما تقدم الاوروبيون وهم يومئذ لن

يكونوا بحاجة الى رباط يجمع شملهم سوى الاسلام وهو قائم فعلا ولم يفقدوه بعد » .

ان عظمة الاسلام الفريدة ماثلة فى انه يسير بالتقدم المادى والتقدم الروحى فى طريق واحدة . وهذا يجعل مستقبله مستقبلا للبشرية كلها .. ذلك أن الحضارة الغربية المعاصرة تعانى هذه الآفة القاتلة . وهى أن التقدم المادى يمضى هادرا وسريعا بينما تقدمها الروحى متخلف جدا وبطىء كذلك .

ويوم يكتشف الوعى الانسانى حاجته الى المواءمة بين تقدمه المادى والروحى سيجد الاسلام فى انتظاره يمنحه حضارة المادة وحضارة الروح ، ويهديه سواء السبيل .

وهذه حقيقة يجب على المسلمين ان يستعدوا لتقبلها وحمل تبعاتها .

والدولة المسلمة فى عصرنا هذا مطالبة بأن تصادق اكثر واكثر حركة العلم .

ونحن نعنى بحركة العلم ذاك التطور الخلاق الذى يقطع الحياة وثبا مخلفا وراءه العمى الذين لا يبصرون ، والصم الذين لا يسمعون ، والمقعدين الذين لا يواكبون ركبه ولا يتابعون خطاه .

ولا يعنى مسايرة حركة العلم والحضارة ان نفقد شخصيتنا الاسلامية وتقاليدنا ، ونذهب نقلد الغرب فى شكليات الحياة المنحلة ومظاهرها الماجنة والرخيصة . بل يعنى ان نحيا فى مستوى تعاليمنا

ودينيا وتقاليدنا حيــاة متحركة ومتجــددة وملتقية مع روح العصر وانجازاته الجادة .

على الدولة المسلمة اليوم ــ كل دولة ــ أن تتسلح بأسلحة العصر لا عسكريا فحسب ، بل فى كل مجالات الحياة . .

عليها أن تقوم بتصنيع مواردها وبلادها ، وأن تأخذ بحظ وافر من احدث ما وصــل اليه العلم والتكنولوجيا أولا بأول ، وأن تتيــح لشبابها فرصة التزود الكامل بالمعرفة والعلوم . ونحن فى هــذا لن نكون مقلدين لغيرنا ، بل سنكون قد استأنفنا حضــارتنا التى غذت العالم من قبل وعلمته لغة الحياة .

علينا نحن المسلمين أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن نسلم رقابنا للاغلال ، وديننا للضياع ، وروحانيتنا للجفاف .

علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لايزال قائما . وأن الاســلام الذى نحمــل لواءه لم ينته ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر ، كما لن تنتهى حاجة البشرية اليه .

وعلينا أن نعمق ايماننا بأن الاسلام :

دين ، ودولــة ..

حق ، وقـــوة ..

ثقافة ، وحضارة ..

عبادة ، وسياسة ..

ملحق

بعد الفراغ من هذا البحث يطيب لى ان اضرب مثـلا ، واقدم نموذجا للدولة المسلمة وللحاكم المسلم .

ولن اختار هذا النموذج من بين الخلفاء الراشدين . فقد يقال : تلك امة قد خلت .. وذاك طراز شـهد الوحى ورباه الرسـول . سأختار النمـوذج من العصر الاموى . ذلك العصر الذى شـهد انحرافات بالغة ، والذى تنبأ له الرسول بانه سيكون نهـاية عصر الخلافة الراشدة وبداية عصر الملك العضوض .

سأختار « عمر بن عبد العزيز » .. !!!

الرجل الذى حاول نقل عصر الوحى بمثله وفضـائله الى دنيا هائجة مائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنـة بالتحلل والترف . ثم نجح فى محاولته نجاحا منقطع النظير .. !!

لقد جعل من الملك العضوض الذى شاده الامويون عبر ستين عاما ــ قبل مجيئه ــ خلافة اوابة ، بارة ، عادلة ، تمثل كل فضـائل وسمات عصر النبوة والوحى .

ومتى .. ؟

ليس فى عشرين عاما ، ولا فى عشرة أعوام .. بل فى عامين ، وخمسة اشهر ، وبضعة أيام .. !!!

وهذا النموذج يرينا « روح » الدولة المسلمة و « ضـميرها » كما يرينا شكلها الذى كان مثاليا بالنسبة لعصرها .

بيد أنه لا يرينا الشكل « النهائى » للدولة المسلمة . . ففى عصرنا هذا لابد للشكل أن يختلف بقيام المؤسسات الدستورية ، والمجالس النيابية التى تضبط دور الحاكم ، كمنفذ لاحكام الله ، ووكيل عن الامة ولابد من صحافة حرة ، ومعارضة حقيقية وفعالة ، يخشاها الحاكم ولا تخشاه ؛ ويتلمس عندها الصواب والصدق وسواء السبيل .

ان النموذج الذى يقدمه لنا « عمر بن عبد العزيز » يريد،ا فى أية آفاق رفيعة شامخة تحلق الدولة ويحلق الحاكم حين يكون الاسلام الحق هو المنهج ، وهو القدوة ، والأمام . . !!

ولن أقدم هذا النموذج فى كتابة جديدة . بل سأستعير فصلا من كتابى « معجزة الاسلام : عمر بن عبد العزيز » ذلك الفصل الذى كان الكتاب قد تضمنه تحت عنوان « المنهج » . .

راجيا ان يكون تتمة مباركة لحديثى هذا عن — الدولة فى الاسلام — . .

* * *

كتب اليه واليه على خراسان يستأذنه فى ان يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلا فى رســالته للخليفة « انهم لا يصلحهم الا السيف والسوط » ..

فكان رده التقى الحازم :

« كذبت ..

بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم ، واعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين » . !!!

* * *

العدل ، والحق .. !!

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحب المستقيم ، ستمضى خطاه .. آخــذا معه على ذات الطريق جميــع الناس : أمراءهم ، وعامتهم .. اغنياءهم ، وفقراءهم . اقوياءهم ، وضعفاءهم . !!

والخليفة ، الذى نراه دائم البكاء ، بل النحيب . كلما ذكر الله واليوم الآخر .. والذى ينتفض تحت وقع تقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه واســلوبه فى الحكم حيث تطل علينا من وراء دموعه المتثالة روح عالية تناضــل فى جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق .. وحيث تطل علينا كذلك بصيرة نافذة لا يفلت من ضيائها شىء ، وارادة حازمة لا يهولها صعب ، ولا يجفلها خطر ..

وفجاة سنرى العينين السابحتين فى دموعهما دوما ، تحدقان كعينى الصقر .. وترسلان بريقا أخاذا ، يقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين ليس الى خداعهما سبيل ... !!

* * *

ان المصاعب المتطاولة ، والاخطار المحدقة ، والمؤامرات المتساوقة لن تزيد الارادة الرافعة لواء العدل والحق الا تقدما ومضاء .

فلتفن المواقب لنفسها .. أما هو فلن يبالى بما كان ولا بما سيكون منها ... بل سيضع يمينه فى يمين الحق ، ويمضى معه الى حيث يدمدمان معا على مظالم وظلمات الاعوام الستين التى سبقته فى الحكم الأموى .. والى حيث يجعلان ظلماتها نورا .. وهجيرها فردوسا .. وترفها قناعة .. وانحلالها ورعا .. واستعلاءها تواضعا .. وقهرها رحمة .. ورعبها امنا .. !!

وبين يدى عزمه الربانى القدير ، راحت كلماته تقرع اسماع الغطرسة ، والتحدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل الا بتقطيع اوصالى واعضائى ، لامضيت ذلك وأنا سعيد » . !!!

«ووالله ، لو لبثت فيكم خمسين عاما ، ما اقمت الا ما اريد من العدل » ... !!

فلنتابع منهجه لنرى ..

ولكن علينا الا ندع التفاصيل الكثيرة تشغلنا ببهرها عن الاسس والقواعد .

وعلينا ان نقتصد فى ذكر الوقائع والمشاهد التى تحكى خصائص المنهج وسماته ، حتى يفيء علينا هذا التركيز فى الرؤية تركيزا مماثلا فى نشوة العقل وغبطة الروح ..

اى اننا سنكتفى من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التى تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور فى : ـــ

* نظرته الى دور الدولة ووظيفتها ..
* نظرته الى دور الشورى ووظيفتها ..
* نظرته الى دور المال ووظيفته ..
* موقفه من وحدة الامة وسلامتها ..
* اسلوبه فى العمل ..

* * *

ـــ فاولا : الدولة قـــدوة ..

ان الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بســـلطان الدولة لا ياتون امرا مذكورا .. فتلك سنة مألوفة معتادة . ان تحمى القوة القـــانون .

أما الحكام الذين يحمون القانـــون وينفذونه بالقـــدوة ، فأولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد الى الخوارق والمعجزات .

ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحدا من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها، اذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى .

والدولة عنده تتمثل فى كل الاجهزة العاملة ، لكن ياتى فى المقدمة دائمـــا :

ا ــ الخليفة بوصفه رئيس الدولة .

ب ــ الولاة بوصفهم حكام الاقاليم .

ج ــ القضـــاء .

د ــ أمناء بيوت المال .

والخليفة ــ اى خليفة ــ وان وضعته وظيفته ومسؤولياته على راس الدولة ، فانه يظـــل عاجزا عن أداء دوره ما لم يقف معه فى مستواه او قريبا من مستواه ولاته وقضاته وأمنـــاؤه على الاموال العـــامة .

ها هو ذا « عمر » يقول :

« ان للسلطان اركانا لا يثبت الا بها . .

* « فالوالى » ركن . .
* « والقاضى » ركن . .
* « وصاحب بيت المال » ركن . .
* « والركن الرابع » أنا » . . !!

واذن ، فلكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس، لابد أن تتشـــكل هذه القدوة من ســـلوك هؤلاء الاربعة مجتمعين .

الخليفة ، وولاته ، وقضاته ، وخزنته .

ولكى تكون الدولة قدوة ، لابد أن تكون بمسؤوليها جميعا ، وعلى راسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورائدته . .

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على راسها فى مكان القدوة ، حاملة وحاملا معها كل ما تلقيه القـــدوة من مسؤوليات ، وباذلا كل ما تتطلبه من تضحيات .

وقبل أن يأمر ولاته ، وقضاته ، وخزنته ، بدأ بنفسه .

لقد تلونا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست الا كأحدكم . .
غير انى أثقلكم حملا » .

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ، الحازم ، الفريد .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة اربعين الف دينار . . هى حصيلته من مخصصاته كأمير أموى . . ومن الارض التى كان يملكها . . ومن نصيبه الوفير من ميراث ابيــه عبد العزيز بن مروان .

والآن ، تتفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، فيرى ان هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه امراء بنى مروان — وهـــو معهم — لم يبلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتمركزة فى ايدى حفنات من الامراء والسادة ، الا حقوق الملايين واقواتها سلبت منهـــا بغير حق ، وبغير سلطان . . !!

ومن فوره ، اتخذ قراره الحاسم بالغاء كافة مخصصات الامراء ، ومخصصات حرسهم وخدمهم ، وقراره بنزع الاقطاعيات الزراعية منهم جميعا ، وردها الى بيت المال . .

وبدأ بنفسه ، فتخلى عن جميع املاكه وامواله !! حتى ارض « فدك » فى « خيبر » وكانت خير ممتلكاته واثمنها ، ولم يكن احــد اقطعه اياها ، بل ورثها عن أبيه .

لكنه سأل نفسه ومن اين جاء بها ابوه . . ؟ !

لقد افاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر ، فخصصها لابناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الامر معاوية فوهبها لمروان .. ومن مروان . وصلت الى ابنه « عبد العزيز » والد « عمر » .

نقول : حتى هذه الارض ، تخلى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره ان يضمها لملكية الدولة ، وان يصرف ريعها ونتاجها حيث كان يصرف على عهد الرسول وخلفائه ..

ليس ذلك فحسب .. بل لقد تنازل عن كل درهم فى راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين .. !!

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة ارض صغيرة كان قد اشتراها بحر ماله ، ولم تكن تغل اكثر من مائتى دينار فى العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتا دينار فى العام ، لرجل كان دخله — منذ ايام لا غير — اربعين الف دينار .. !!

مائتا دينار ، لحاكم اعظم ، واكبر ، واغنى امبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعرضه ، وتعيش معه اسرته التى كانت هى الاخرى — منذ ايام — لا غير ، تخب فى النعيم خبا .. وتعب من المباهج عبا .. !!

ولكن ، اى باس ؟!

اليس قد رفع الحق شريعة والعدل منهاجا ؟

فليكن حسبه الا تسقط الراية من يمينه .. وليكن حسبه ان يحلق بها فى مستوى تتقطع دون بلوغه الانفاس .. !!

كل أرضه تركها للدولة ..

كل ثروته النقديه ، دفعها الى خزانة الدولة .

بل لقد جمع ثيابه وحلله الرافهة ، وحلل زوجته وأولاده ..

ثم جمع مراكبه وعطوره ومتاعه ؛ ثم دفع ثمنها الذى بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار الى بيت المال .. !!

ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثه ، لكنه رفضه جميعا الى آخر درهم منه .. وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة ــ مائتى دينار فى العام ــ بواقع ثلاثة أرباع دينار فى اليوم ، لامير المؤمنين ، وزوجة امير المؤمنين ، وأولاد امير المؤمنين ... !!

انما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركا أهله وأولاده يحيون ولو فى مستوى حياة أوساط الناس .. ؟؟

انه يعتبر هذا ــ لو حدث ــ احتيالا على المسؤولية ، وهروبا من تبعات القدوة ، ويرى النار تمد اليه ألسنتها اللاهبة ، لتطوقه حسابا له وعقابا .. !!

ومن ظن أننا نبالغ فى التصوير ، ونسرف فى صبغ الالوان ، فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوما الى داره بعد صلاة العشاء ولمح بناته الصغار .
فسلم عليهن كعادته ، وبدلا من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن .
رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب .

فسأل : ما شأنهن .. ؟؟

فاجيب : بانه لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل .
فكرهن ان يشم من أفواههن ريح البصل فتحاشينه لهذا ..
فبكى امير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يا بنـــاتى ...
ما ينفعكن أن تعشـــين الالوان والاطـــايب ، ثم يذهب بأبيكن الى النـــار .. ؟؟ .. »

وترى احدى بناته الصغار صديقة لها تزين اذنيهـــا بلؤلؤتين جميلتين ، فترسل احداهما الى أبيها ضارعة أن يشترى لها مثلها .

ويدعو امير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين ... ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« ان استطعت أن تجعلى هاتين الجمـــرتين فى أذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهذه » .. !!

ان مسؤولية القدوة — اذن — لا تنحصر فيه ، هو الخليفـــة والحاكم .. بل — وحسب منهجه وتقديره — تنال أهله جميعـــا ، حتى بنياته الصغار .. !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسؤولية والقدوة .

اقترب يوما من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« انك لتعلمين من اين اتـــاك أبوك — عبـــد الملك بن مروان — بهذه الجواهر ، فهل لك ان اجعلها فى تابوت ، اضعه فى اقصى بيت المال ، وأنفق ما دونه ، فان خلصت اليه أنفقته فى حاجات المسلمين » .. ؟؟

ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذا الحلى وهذه الجواهر ، وهى عزيزة عليها ، لانها هدية ابيها لها فى عرسها وزفافها . .

ولكنها لا تجادل زوجها « القديس » حتى فى هــذه . . وتجرد منها نحرها ومعصميها ، فى غبطة ورضا . . !!

* * *

ويغادر — امير المؤمنين — قصور الخــلافة ، ويأوى الى دار متواضعة . .

ثم لا تشهد هذه الدار ايقاد النار الا لماما . .

ويأخذ علىٰ نفسه العهد الا يستحدث لنفسه شيئا من اشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه . .

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مرقاتان يرقى عليهما من صــحن داره الى حجرته . .

« فتهدمت احدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من اهله .

« فلما جاء « عمر » ووجدها . سأل : من صنع هذا . . ؟ قالوا : فلان . قال : الى به . .

« فلما جاء قال له عمر . ويحك انفست على « عمر » ان يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة . . ؟!

« والله ، لولا ان يكون هدمى لها افســادا بعد اصلاح لهدمتها ورددتها الى ما كانت عليه . . » !!!

* * *

ويدخل عليه فى داره احد خاصته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ، وقد دثر جســمه كله فى ازار .. وحسـبه الزائر مريضا ، فسأله ما باله .. ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

« لا شىء ، غير انى أنتظر ثيابى حتى تجف ..

قال زائره : وما ثيابك يا امير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وازار .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصا آخر ، ورداء ، وازارا .. ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بليت .. !!

قال الزائر : الا تتخذ سواها .. ؟؟

وهنا شرقت خلمـاته بدموعه ، وراح يجهش بالبكاء مسـندا جبهته على راحتيه ، مرددا آية القرآن الكريم :

« تلك الدار الآخـرة نجعلهـا للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .. !!!

ولما كان يريد للدولة فى عهده ان تكون رحمة وحنانا ، فقد راح يمزق عنها كل اقنعة الصلف والكبر والتمايز .

وايضا ، بدا بنفسه ، فمنع الحراس ان يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعا ان يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم :

« انما يقوم الناس لرب العالمين » !!

وناداه يوما رجل من المسلمين قائلا : « يا خليفة الله فى الارض » . . فأخذته الرعدة الصالحة ، وصاح فى الرجل :

« مه . .

« انى لما ولدت أسماني أهلى « عمر » ، فلو ناديتنى « يا عمر » اجبتك . .

« ولما كبرت اخترت لنفسى كنية ، فكنيت « أبا حفص » ، فلو ناديتنى « يا أبا حفص » اجبتك . .

« ولما وليتمونى أموركم سميتمونى « أمير المؤمنين » ، فلو ناديتنى « يا أمير المؤمنين » اجبتك . .

« أما خليفة الله فى الارض ، فلست كذلك . .

« انما خلفاء الله فى الارض رسله وانبياؤه » . . !!

ومنع الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة . وارسل بذلك كتابا حازما الى ولاته فى جميع الاقاليم ، قائلا فيه :

« مروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه اطناب دعائهم وصلاتهم . .

« ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات . .

« وليستنصروا الله . .

« وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين . .

« وليدعوا ما سوى ذلك » !!

* * *

واذا كان قد حمل واهل بيته معه مسؤولية القدوة على هذا

النحو المجيد والفريد .. اذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ، فان هذا لا يكفيه ، بل لابد ان يحملها ايضــــا أمراء بنى مروان جميعا . طائعين ان شاءوا .. وان ابوا فكارهين .. !!

لن يدعهم يتبذخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنما .

اذا كان ولابد ، فلتكن هـــذه القرابة ملجــأ لهم من اطمـــاعهم وشهواتهم .. ومغنما بالتزامهم منهج امير المؤمنين ..

أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم فى عهده كدنياهم قبل عهده .

لن يظلوا طبقة فوق الامة .. ولن يدلف الى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبل أن تهل على الدنيا ايام الاغر ابن عبد العزيز .. !!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الابقاء على بعض امتيازاتهم فلما فشلوا راحوا يناورون ، ولما اخفقوا راحوا يهددون .

ولكن رجل القداسة وقف لهم كالقدر ، واحكم وضع الشكائم على غرورهم واهوائهم ، ثم دفع بهم جميعا أمامه على طريق العدل والحق ، مصفيا ترفهم المنهوم .. !!!

حدث يوما أن أرســـل الى كل امير واميرة بقـــدر من المال ، يدبرون به أمرهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة ، فتنادوا واجتمعوا ، وقرروا أن يوفدوا اليه صـــديقا له يرجوه باســـمهم أن يرفع لهم العطاء .

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذى اعطيته لهم ، وانى لاعلم ان فى المسلمين من هو احق به ، واحوج اليه منهم » .

وعاد مبعوثهم اليهم يقرع اسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم:

« يا بنى اميـــة ...

« لا تلوموا الا انفسكم ، فقد عمدتم الى صاحبكم ـــ عبد العزيز بن مروان ـــ فزوجتموه حفيدة « عمر بن الخطاب» فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوفا فى ثياب عمر بن عبد العزيز ، فلا تلوموا الا انفسكم » !!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والامناء على الاموال العـــامة ـــ أولئك الذين ســـمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون اركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى ان الولاة ، بحكم كونهم نوابه فى حكم الاقاليم ..

والقضاة ، بوصفهم اهل الفصل فى مصاير الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون ..

وامناء بيوت المال ، بما لهم من ســيطره مبـــاشرة على الاموال العامة وارزاق الناس .

نقول : كان يرى فى هذه المناصب اخطر مناصب الدولة واكثرها ثقلا وحساسية .. كما كان يرى فى اســتقامة امرها العـــامل الاول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسؤولياته فى قسطاس وسداد .

وهكذا راح القديس يستكمل سمات القـــدوة للدولة ، باختيار ولاته ، وقضاته ، وأمنائه فى حرص من يختار عافيته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، انه لن يجد من هؤلاء من هو فى مستوى ورعه ، وشموخ نسكه وفضائله ، فراح يجتهد فى العثور على من يكونون فى مستوى رجائه وثقته ..

وسارع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا فى خدمة المظالم السابقة . ثم ولى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة امثال : « أبى بكر ابن حزم » و « عبد الرحمن القشيرى » و « عدى بن أرطاة الفزارى » وآخرين من طرازهم واخوانهم .

وكان اول ما اوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا فى العدل والاصلاح والاحسان ، بقدر من كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان » ... !!

كذلك ، كان اول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الامينة :

« انى قد وليت عليكم رجالا ..

« لا اقول انهم خياركم ، ولكنى اقول : انهم خير ممن هم شر منهم » !!

انه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان .. وان كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدر معلوم . !!

ويمضي ولاته الى أقطارهم ، ويسهرون على مسؤولياتهم فى ولاء صادق .. تقودهم على الطريق وتثبت اقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس .. هذه السيرة التى كان اريجها ينتشر انتشار الضياء وعبيرها يفوح ويهب هبوب الرياح والبشريات .. !!

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يبدو من أحـــدهم .. واذا سولت لاحدهم نفسه ، شفاها من وساوســـها بمجرد تذكر خليفته القديس فى حياته الشظفة ، ورقاعه البالية !!!

وراح الخليفة يواليهم برسائله ووصاياه .. وصية من بعـــد وصية وكتابا وراء كتاب .

لنقرأ واحدا من هذه الكتب :

« .. أما بعـــــد

فان من ابتلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببلية عظيمـــة !!

« فنســأل الله عافيته وعونه ..

« وانى أدعوك أن تقف نفسك فى سرك وعلانيتك ، عند الذى ترجو به النجاة من ربك ..

« تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل أن يتولى اصلاحه غيرك ..

« ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

« وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحا فى دينهم وأعراضهم .

« واستر كل عوراتهم ..

« واملك زمام نفسك تجاههم اذا هويت ، واذا غضبت »!

* * *

وكما أحسن اختيار ولاته ، أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المـــال .

وأمر هؤلاء واولئك ، ان يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الامناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت اضواء قداسته وقدوته تتعـالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وسعت الدولة كلها والامة جميعها بأنوارها الغامرة وهداها الوثيـق .

* * *

ـ وثانيا : الشورى ضرورة ..

وننتقل الآن الى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفا غذا يمتاز بالعمق والشمول

لقد أدرك ان كل ما يشيده من دنيا صالحة ، وعالم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وانمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه وتمثل له هـذا السياج فى توسـيع قاعدة المسـئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة .. وبعث رأى عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقد الاخطاء ويسهم فى اصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد .. ولكن ديموقراطية الحاكم مع ذلك كانت تتبين وتسـفر كالشمس من خلال اسـلوبه فى الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق . ونظرته الى الامة التى يحكمهـا ، ومدى ولائه لحقوقها وحرياتها .

ويهذا المعيار والمسبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » فى هـذا المجال وكأنه نسيج وحده !!

لقد احاط نفســه بالابرار الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، والذين لا يزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وان قطعت منهم الرقاب ..

جمعهم حوله ، يفكرون معه .. بل لقد كان يوصى بعضهم أن يجلس تلقاءه وهو فى مجلس الحكم ، ويضـع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته فان نسى فقال كلمة ، او أتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور باشارة ، تعارف واياهم عليها ..

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست ترفا .. وآمن بانها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستوثق العـدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم امهاتهم احرارا .

من اجل ذلك ، راح فى سرعة الضوء يخلق رأيا عاما صـادقا امينا فى طول الدولة وعرضها .

وراح يضـع الحاكمين والمحكومين وجها لوجه امام مسئوليتهم المشتركة ، بل الواحدة فى دحض الخطأ والتزام الصواب .

فيكتب للولاة قائلا :

« انكم تعدون الهارب من ظلم امامه عاصيا ..
« الا ان أولاهما بالمعصية الامام الظالم » !!

ثم يكتب الناس فى شتى الاقاليم قائلا :

« اى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعة له عليكم . وقد صيرت أمره اليكم ، حتى يراجع الحق وهو ذميم . . !! »

ويرسل الى احد ولاته قائلا :

« قد كثر شاكوك . . وقل شاكروك . . فاما أعتدلت ، واما اعتزلت » !!

هكذا رفع سلطة الشعب فى وجه سلطة الحكم ، واسلم نواصى ولاته وعماله للراى العام يقودهم على طريق الحق طائعين او كارهين .

ولكى يدعم هذه السلطة ، فتح ابوابه على مصاريعها لكل شاك او متظلم من حاكمه وواليه . . وارسل منشورا موجزا الى جميع الاقطار :

« من ظلمه امامه مظلمة ، فلا اذن له على » . .

اى ليقتحم على دارى ، غير منتظر اذنا ، وغير واقف بباب !!

* * *

وانه ليبهرنا اسلوبه الفريد فى بعث الراى العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشد زنادها الى اقصاه .

ففى سبيل ذلك نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل من يكشف عن خطأ ، ويهدى الى صواب .

ولنطالع فى اجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم امر ان يقرأ على الناس فى المواسم والمحافل والمجامع :

« اما بعــد . .

فايما رجل قدم علينا فى مظلمة نردها ، او امر يحيى الله به حقا ؛ او يميت باطلا ، او يجىء بخير . فله منا ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة دينار . بقــدر ما يتكاءده فى ذلك من طول السفر وبعد الشقة » . . !

اليس عجبا هذا الذى نقرا ونرى . . ؟؟

الا ، وان اعجب من ذلك ، أن بطــل هــذا كله رجل لم تــكن بيئته ولا عصره بقادرين على تشكيل بنائه . .

لكنها صبغة الله . . ومعجزة الاسلام . . !!

ولكم كان صادقا حين قال :

« لو وكلنى الله الى نفسى لكنت كغيرى » . . !!

لقد راح يضرب المثل الاسمى والقدوة الباهرة فى تقبل النقد ، وهو الذى لم يعرف الناس له ــ خلال خلافته كلها ــ خطأ واحــدا يستأهل النقد والتفنيد . .

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له : الى اين ؟ ولماذا لا !

هنالك يربت على كتفه ، ويدنيه منه ، ويقول له :

« زدنى يا اخى ، جزاك الله خيرا » !!

انه يلتمس الحكمة والصواب وراء السنة الصادقين حتى حين يكون احدهم طفــلا .

قدم عليه وفد من المدينة يوما ، وتقـدم من بينهم غلام صـغير ليتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم . فتملاه أمير المؤمنين ، وقال له :

« يا بنى : دع القول لمن هو أسن منك » .

ويبدو ان الغلام العربى الاصيل كان يحمل نبوغا مبكرا ، فقد اجاب الخليفة من فوره :

« يا أمير المؤمنين . .
المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . .
« ولو كان الامر بالسن ، لكان فى المسـلمين من هو أحق بهذا الامر منك » . . !!

وفجاة ، تنثال دموع الغبطة والفرح من عينى القديس ، ويتهلل وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت . . صدقت . .
« عظنى يا بنى . . !! »

وان احد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوما شـاهرا سيفه ، يسب ويشتم أمير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسـمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى . . ويرسـل لامير المؤمنين بأمره ويقول فى كتابه : « لقد هممت ان أقتله » .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فورا :

« أما والله ، لو انك قتلته لقتلتك به » . . !!

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجل من عامة الناس ، رافعا عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم .

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :

«لعلك أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم فى الدنيا ما تتقاضاه منى غدا عند الله

« ولـكن ، لا ..

« قم عفا الله عنك » ...!!

* * *

ومن أذكى وأبلغ ما أداه — ابن عبد العزيز — فى سبيل انهاض رأى عام أمين على مسئولياته وقادر عليها ... حسر ذلك المد الطاغى لدولة الشعر والشعراء التى كانت قائمة يومذاك .

لقد رأينا فيما سلف من حديث كيف اصطنع الامويون الشعراء لتزييف الحق ، وتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والاخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقبة كؤودا فى سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها .. والآن يتقدم البطل القديس ، مطلقا رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتبدده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مشرقة بنور الحق وحده ..

لقد وقف يخطب الناس فقال :

« من أراد أن يصحبنا ، فليصحبنا بخمس أو فليفارقنا ..

* يرفع الينا حاجة من لا يستطع رفعها ..
* ويعيننا على الخير بجهده ..
* ويدلنا على ما لا نهتدى اليه من الخير ..
* ولا يغتابن عندنا أحدا ..
* ولا يعرضن لما لا يعنيه .. »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، ان جميع كتب التاريخ التى تنقل هذا الخطاب ، تتبعه بقولها :

« فانفض عنه الشعراء والخطباء ،
وثبت معه الزهاد والفقهاء .. !! »

اجل .. فمعظم شعراء عصره ، وعلى راسهم ـ الاخطل ، والفرزدق ، وجرير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها رحم ولا قرابة .. !!

فهم اما مادحون بغير حق .. واما هاجون بغير حق ايضا .

وهم فى كلتا الحالتين يحرمون الراى العام رؤية الصدق بما ينشرون من اضاليل وبهتان .

والآن يجيئهم رجل عظيم ، لا حاجة به اليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشعر فى تأجيجها ..

وليس له طموح يحتاج للشعر فى قرع الطبول له ..

وليست له شهوات يحتاج للشعر فى تزيينها ، ولا اخطاء يحتاجه لتبريرها ..

وليس له بالسلطة ولع ، فيحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها .

ثم انه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهذر العريض الذى ملأ به الشعراء ساحة العصر الاموى كله .

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد احد منهم يظفر بدرهم واحد من اموال الامة ، مكافأة على مدح او اتقاء لهجاء .!

وراح — امير المؤمنين — يشرف بنفسه على امداد الراى العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها الى شتى الاقطار .

ولقد بدأ بدحر تلك الفاحشة التى كان الحكم الاموى يمارسها فى سفالة . وهى لعن الامام على كرم الله وجهه على المنابر .

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة ... تلك الآيات الطاهرة :

* « ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ،ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا انك رؤوف رحيم »

---

* « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

* * *

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق ..

ودحر الباطل ، وآزر الحق ..

وكان ذلك اسهاما فعالا فى انهاض راى عام حصيف وامين ..

وامير المؤمنين « عمر » لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها ادراك حاكم عادل صالح فحسب .. بل انه كذلك ليدرك جوهرها ادراك فيلسوف .

فهو لا يرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالامة، وتبادل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع .. بل يمضى فى اتجاه التحليل النهائى

لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلا فى ظفر كل فرد من الناس بحقه فى اختيار اقتناعه . . وحق هذا الاقتناع فى التعبير عن نفسه . فى غير زيف أو غموض .

ذلك أن الناس حين يزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، او رهبة ، فانه يستحيل فى نفس الوقت ، ولنفس السبب معرفة آرائهم .

ومادامت الآراء الصادقة هى مادة الشورى واداتها ، فان اختفاء هذه الآراء اذن ، يعتبر وادا للشورى والغاء لمهمتها .

وهنا تطل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس — حتى حين يخالفهم ويخالفونه — موضع القبول والتقدير .

والوقائع التى تحكى ولاءه الوثيق لحرمة الاقتنـــاع تزدحم بهـــا الشهور التسعة والعشرون التى قضاها خليفة واماما . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التى تكاد تعطينا التعبير النهائى لهذا الولاء .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقوا على الامام على كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . هؤلاء الذين تحولوا بعد ذلك ، وخلال العصر الاموى الى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثرا ذهب منهم خلالها الوف الضحايا .

وبالاضافة الى نشاطها المسلح هذا ، فقــد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سنة .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابد الاواب لا ينسى حتى فى فتنهم هذه ، حقهم فى ان يكون لهم اقتناعهم ، ثم لا ينسى واجبه فى احترام هذا الحق لهم ، وواجبه فى اعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت

مرتفع ، مادام نشاطهم لا يتحول الى عمل ارهابى يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم .

بل اننا سنراه يرى بحصـــافته الباهرة ، ان الســبيل الامثل لصرفهم عن التآمر والارهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل أن يتحول داخــل نفس صاحبه المقهورة الى حقد موتور ، وقذيفة رعنــاء . . !!

وهكذا ، لا تكاد احدى تلك الفرق تتحرك فى الايام الاولى لخلافته مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يرسل الى زعيمها هذا الكتاب :

« اما بعــد . . .

«فقد بلغنى انك خرجت غضبا لله ولرسوله .. ولست اولى بذلك منى ..»

« فهلم اناظرك . .

« فان يكن الحق معنا ، تدخل فيه ، وان يكن الحق معك ، نراجع انفسنا وننظر فى أمرنا . . !! »

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات «القديس» فيخجل من نفســه ، ويلقى سلاحه . ويرسل مبعوثين الى عاصمة الخلافة ، يجريان مع الخليفة حوارا حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويجرى الحوار بينهما رائعا ، سادعا ، تتجلى خلاله موهبة « ابن عبد العزيز » فى رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطق ، وامتلاك الافئدة والعقول . .

ثم تكون عاقبة هــذا الموقف العظيم ، أن تلقى تلك الفــرقة المتمردة سلاحها ، بعد ما تبينت انها فى عصر رجل جــديد ينتمى لعصر

النبوة والوحى .. رجل يخجل الشيطان نفسه أن يشغب عليه ، او يتحــداه .. !!

على أن لهذه الواقعة ــ رغم دلالتها المفيضة ــ مثيلا آخر يكمل الصورة التى ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأى وحــرمة الاقتنــاع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخــوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لدحض هذا المنطق واسكاته ــ بل رأى أن قيام منطق أهدى ، وحجة أوضح واصــدق ، هو الســبيل لاظهار الحق واخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخــوارج ــ هم « حرورية الموصل » ــ يسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم . ويكتب اليه حاكم الموصل ، يستأذنه فى قمعهم واسكاتهم ..

اقول : نلتقى بأمير المؤمنين يجيب واليه فيقول :

« اذا رأوا أن يسيحوا فى البلاد فى غير أذى لأهل الذمة .. وفى غير أذى للامة .. فليذهبوا حيث شاءوا ..

« وان نالوا أحدا من المسلمين ، أو من أهل الذمة بسوء ، فحاكمهم الى الله .. »

بالله ، ما أعدله .. وما أروعه .. !!

انه لا يرى لنفسه حقا ــ اى حق ــ فى الحجر على آراء الآخرين ولا الوصاية عليها .

وهو كحاكم — لا يرى لنفسه اى حق فى التدخل الا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والامة .

اما دون ذلك ، فلكل راى حرمته ، ولكل اقتناع حقه وحريته .

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذى مكن للشورى فى عهده تمكينا تكاد تنقطع دون بلوغه انفاس كثير من الديموقراطيات ..

ولطالما قالوا له يومئذ : ان هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس افكارا زائفة ، ويلبسون الحق بالباطل ، وان تركهم يجوبون البــلاد بعقائدهم هذه ، عمل ينذر بسوء مآب .

فلا يزيد القديس العادل على أن يذكر محدثيه ومحرضيه بآيات القرآن الكريم التى نهى الله فيها رسوله عن أن يسوس ضمائر الناس بالقهر والبطش :

« افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .. ؟

« وما أنت عليهم بجبار » ..

« انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

ولقد وقفت العواقب بجانبه ، واثبتت صدق رايه وذكاء تقديره: فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوما واحدا منذ حكم معاوية ،حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم الا أمعانا فى التحدى وضراوة فى القتال .. نراهم فى عصر هــذا القديس الجليل يغمدون سيوفهم ، وينسون طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الامويين من ترات ، وثارات ..

ـ وثالثا :.المال وديعــة ..

وأمام المشكلات الاقتصادية ــ مشكلات الدخل والتوزيع ــ التى تحير الدول فى كل العصور والازمان ، لم تأخذ « عمر » حيرة ، ولم تعضله ازمــة .

ذلك انه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظم واهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمه ــ يومئذ ــ لم يكن ينقصها المال .. انما كان ينقصها اتباع الحق فى تقاضيه .. واتباع العدل فى توزيعه ..

وقبل هذين ، بعث حرمة الاموال العامة وقداستها فى ضــمير الدولة ، بكل مسئوليها ... وفى ضمير الامة ، بكل أفرادها ..

أن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من ايمانه بقول الله تعالى : « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

فمصادر الانتاج ، والانتاج ، والثروة .. كل ذلك اذن وديعــة الله عند الناس .. دولا ، وامما ، وجماعات ، وافرادا ..

ولودائع الله هذه حرمتها التى تنأى بها عن التلف ، والسرف، والبغى ، والاحتكار .

فاذا اكتسبت هذه الودائع صفة اخرى ووصفا آخر ، فصارت اموالا عامة ، فان حرمتها وقداستها تربوان وتزدادان .

ذلك ان معنى كونها « اموالا عامة » انها حقوق شائعة وثابتة لكل افراد الامة .. لكل ارملة فيها وكل يتيم .. لكل مسن وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهى بهذه المثابة . مثابة انها ، اولا : ودائع الله ، وثانيا : حق الناس ، جميع الناس .. تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وثقى .

و « ابن عبد العزيز » يرى نفسه مسئولا عن اعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق .

وانه ليعبر عن ذلك فى كلماته الفاصلة :

« انما أنا حجيج المسلمين فى مالهم » !!

كما يعبر بسلوكه تجاهها تعبيرا يبهر الالباب ..

انه يرسل خادمه يوما ليسخن له بعض الماء كى يتوضأ به فى يوم شات زمهرير .

ويعود الخادم مسرعا بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : اين دفأته بهذه السرعة .. ؟

فيجيب الخادم : فى مطابخ المسلمين ..

وكان « عمر » قد توسع فى انشاء مطابخ عامة للناس ينفق عليها من بيت المال ..

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يمس الماء جسده حتى يذهب الخادم الى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جدا من الماء .. !!!

وانا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلا على مصباح يؤخذ زيته من بيت المال ، فاذا عرض له أثناء ذلك طارىء شخصى — ولو كان لا يستغرق سوى لحظات — فانه يطفىء

مصباح بيت المال ، ويوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهى من ذلك الطارىء . . !!

ولقد يرى البعض فى هذا المسلك نوعا من التزمت المغرق . .

ولقد يرون فى اعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام انورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التى كان يحكمها — ابن عبد العزيز — أمرا غير مألوف . . وربما غير مستساغ . .

غير انهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتهم أن الذى كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .

انما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكل سلوكه تجاه الاموال العامة وحرمتها وقداستها .

وبعد ذلك يستوى أن يكون هـذا المال . عدل درهم من زيت مصباح . . أو ملء حجرة فضة وذهبا . . !!

انه يذكر ، ويذكر الناس دائما بالآية الكريمة :

« ومن يغلل ، يأت بما غل يوم القيامة » !!

والغلول عنده فى أحقر الاشياء ، مثلما هو فى أكثرها واخطرها .

وفيما يستأثر به لنفسه ، مثلما هو فيما يجود به على غيره .

بل حتى الهدايا ، رآها غلولا ، او شيئا يشبه الغلول .

جاءته يوما هدية ، فاعتذر عنها . . فقيل له : ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية . .

فأجاب قائلا :

« لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة » !!

* * *

ان موقفه من اموال الامة لعجيب . ثم عجيب .. !!

وان لها فى فؤاده الذكى التقى لحرمة تضاهى حرمة الايمان ذاته ، وحرمة التوحيد .. !!

يطلب منه أحد ولاته الاذن بمزيد من الشموع التى كانت دار الامارة تضاء بها ، ويضاء بها للامير وهو فى طريقه الى المسجد لصلاة العشاء والفجر .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عهدتك يا ابن أم حزم ، قبل أن تكون واليا ، تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ..

«ولعمرى ، لأنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فتائل اهلك ما يغنيك » !!!

ويكتب اليه وال آخر ، يطلب المزيد من الاقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضا :

« اذا جاءك كتابى هذا ، فارق القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة ..

« فانه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول اضر ببيت مالهم .. » !!

هنا بيت القصيد .. « اضر ببيت مالهم » !!

فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والاقلام والاوراق .. فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعا وأقلاما وورقا

انما المسألة فى وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الاموال

وقداستها .. هى تجنب التفريط والافراط فيها .. هى درجة الولاء لمسؤولية رعايتها وحفظها .. وبهـذا المعيار يصـبح كل عبث بها مرفوضا مهما تكن ضآلة مقداره .

ذلك أن الاسراف الذى يتمثل اليوم فى شمعة او قلم .. سيتمثل غدا ــ اذا استهين بأمره ــ فيما هو أوخم عاقبة واسوأ مصيرا .

* * *

هكذا ارسى لحرمة الاموال قواعد راسخة من الاجلال والتقديس ونعود الى موقفه من « مشكلة الدخل والتوزيع » ..

قلنا : ان الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء ... انما كان ينقصها تقصى الحق فى جمعه .. والعدل فى توزيعه ..

ففيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفـاء قبله ، وقد أرهق الترف والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يعوضون ذلك بجمع المال بوسـائل غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة .

فاهل الكتاب الذين يعتنقون الاسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فورا .. ولكن الدولة الاموية تأبى فى ذلك حكم الاسـلام ، وتبقى الضريبة فوق كواهل الذين اسـلموا ، مبررة ذلك بانهم انما يسلمون فرارا من الضريبة .. !!

ويجىء الخليفة العادل فيرفض هذا التبرير الزائف ، ويعلن أن فرح الاسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الارض مالا وذهبا .

ويطلق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« ان الله بعث « محمدا » هاديا ولم يبعثه جابيا » !!

ولقد ارسل اليه واليه على العراق « عدى بن ارطاة » : يقول « ان الناس قد دخلوا فى الاسلام افواجا ، حتى خشيت ان يقل الخراج » ...

فيجيبه الخليفة المقسط العظيم :

« والله ، لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . !!! »

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التى كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » :

« أما بعد ...

« فقد كتبت الى تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال .. ان أخصبوا ، أو أجدبوا ... ان حيوا ، أو ماتوا . « فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله رب العالمين ! !

« اذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكره من الباطل ، الى ما تعرفه من الحق ...

« واعلم أنك ان لم ترفع الى من جميع اليمن الا حفنة من كتم(١) فقد علم الله أنى سأكون بها مسرورا . ما دام

---

(١) الكتم : نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

فى ذلك ابقاء على الحق والعدل » . . !!!

ولعل بعضـــنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقـــع منا ونحن نتحدث عن « الدخل » أن نشير الى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرة تضـــاعفه وتنميه ، اذا بنا نطرى سياســـة الخليفة تجاه الدخل العام ، لانه الغى الكثير من تلك المصادر والموارد . . ؟!

ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلســـفة القديس المبـــارك الميمون « ابن عبد العزيز » . . ؟!

ان المســـالة عنده ليست مسئلة كثرة . . بل مســـألة وفرة . .

والوفرة ، تكون فى بركة الحلال المشروع ، لا فى كثرة الحـــرام المغتصب .

ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من الحـــديث ، ان نقول لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت امير المؤمنين « عمر » الى سياسته الضرائبية هذه . .

من واجبنا ان نقول لهم : اغلب الظن انكم مخطئون . .

فلقد سارت الامور فى عهده كله على اتم نسق . ولم تكن تنذر باى عجز او اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ترهص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

انما اضطربت فيما بعد ، حين غاب « البطل » عن مسرح العدالة والحق . . وعاد الترف والسرف والفساد ، وسياسة الســـطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد ان رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القديس !

على أن «الخليفة» حين ألغى الضرائب الظالمة ، أتاح فى نفس الوقت موردا ثرا للدولة ، حين رد اليها جميع الارض والثروة التى كانت تحت أيدى الامراء .

وموردا آخـــر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصـــادر الدخل واثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم فى مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير ، وتجريم كل سرف .

أجل .. لقد كان ــ ولا يزال ــ وضع المال فى مكانه الصحيح ، وداخل ضرورته الملحة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر ..

ولقد التزم « عمر » هذا النهج التزاما يكاد يكون مطلقا مع نفسه ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوى قرباه ، وأصـــدقائه ، والنـــاس اجمعين .

ها هو ذا احد المقربين اليه ، الاثيرين لديه « عنبسة بن سعيد » يذهب اليه يوما ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« يا عنبســـة ..

« ان يـــكن ما لك الذى عنـــدك حلالا ، فهـــو كافيك .

« وان يـــكن حراما ، فلا تضيفن اليه حراما جـــديدا ..

« أخبرنى يا عنبســـة ..

أمحتاج أنت ..؟ لا ..

أفعليك دين ..؟ لا ..

« اذن ، فكيف تطمع فى ان أعمد الى مال الله ، فاعطيكه

فى غير حاجة .. وادع فقراء المسلمين ؟!
« لو كنت غارما ، لأديت عنك غرمك .. أو محتاجا لأمرت لك بما يصلح شأنك ..
« فليكن لك فى مالك غناء ..
واتق الله ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل ان يحاسبك أسرع الحاسبين » ... !!!

ان هذا الذى قاله لصديقه الحميم « عنبسة » كان يقوله لكل من يسأله ما ليس له بحق .. على ان هذا الذى هو حق فى تقديره ، لم يكن يتمثل عنده الا فى ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له ان يحول شهقات البائسين الى بسمات متهللة ، وفرح غامر ، دون أن يحول السراة الى طبقة بديلة للبائسين ..

ان كل ما صنعه بهم انه أخذ منهم ترفهم وتخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراما متواضعين ... !!

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، الى التوزيع .. فكيف راح الحاكم القديس يوزع أموال الامة ، وأين كان يضعها ..؟؟

لقد رد المال الى وظيفته الحقيقية ، الى دوره الاصيل ومسؤوليته الاولى فى خدمة الامة وتغطية احتياجاتها :

لقد بدأ . فرسم حدود الكفالة الشاملة التى ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعا فردا ، فردا .. وحدد بالتالى مسؤولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها :

نرى ذلك فى كتابه الى ولاته :

« لا بد لكل مسلم من :

* مسكن يأوى اليه ..
* وخادم يكفيه مهنته ..
* وفرس يجاهد عليه عدوه ..
* وأثاث فى بيته ..

« فوفروا ذلك كله ..

« ومن كان غارما ، فاقضوا عنه دينه » ..!!!

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا .. لا تعنى قصر هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم . انما استعمل هذا الوصف لغلبته لا اكثر .. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعا — مسلمين وأهل كتاب ...

وأمر الخليفة ولاته أن يبدأوا بتغطية حاجات اقطارهم . وما فاض وبقى يرسل الى الخزانة العامة .. ومن قصر دخل اقليمه من تغطية حاجات أهله ، أمده الخليفة بما يغطى عجزه :

« استوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم ..

« فان يك كافيا للناس ، فحسبنا .. والا فاكتب الى حتى ابعث اليك من المال ما توفر به للناس أعطياتهم » ...!!

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشىء فى طول البلاد وعرضها دور الضيافة ، يأوى اليها المسافرون وابناء السبيل ..

ومضى ، يرفع مستوى الاجور الضعيفة ..

وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورســـالتهم دون ان ينتظروا من أيدى الناس أجرا ..

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم امام اغراء الحرام ... !!

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، امر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له اموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة ..

وامر ولاته باحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم ..

وافتدى أسرى المسلمين جميعا ، واغدق عليهم العطاء ..

وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم فى جميع اقطار دولته العريضة المترامية ..

وكما فعل جده العظيم — عمر بن الخطاب — من قبل ، فعل هو أيضا ، فامر ان يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الامهات فطام الرضعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قواهم .. !!

ومن أجل الا يتحول عطاء الدولة الى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع أحد بين عطاءين ...

وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما تكن الاسباب .

* * *

وهكذا تقسط الناس جميعا فى عهده العظيم ما افاءه الله عليهم من الخير ورزق .

وانا لنكاد تذهل امام ذلك الاجماع التـــاريخى الذى يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء فى عهد القديس الورع ، عمر بن عبد العزيز ، حتى لقد كان الاغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها ، ويبسط يده اليها . . . !!!

ذلك أن عدل « ابن عبد العزيز » لم يكف الناس حاجاتهم فحسب بل وملأهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة، بعد أن اغناهم الله من فضله بالحق، وبالعدل، وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » !!!

* * *

— ورابعا : وحدة الأمة وسلامها . .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعا ممزقا يتربص بعضه ببعض الدوائر . . ويتربص كله بالدولة الدوائر . . !!

فخلفاء بنى أمية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصـــبية والقبلية والاقليمية ، فيختص أحـــدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية . . ويميز أحدهم أهل الشـــام . . ويميز آخـــر اهل العراق .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة الى القبـــائل وزعمائها ، فظهر من ينادى بسيادة اهل الحضر — وفى مواجهتهم ، ظهر من ينادى بسيادة أهل البادية .

كذلك كان الخلفاء الامويون قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب — أولئك الذين عرفوا باسم « الموالى » ففرضوا عليهم

الجزية ظلما ، وحرموهم الحقوق التى يكفلها لهم الاسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الاسلام عاليا فى كل مجـــال .

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة من شيعة وخوارج ومعتزلة منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة وفى وجه خصومه فى الرأى ، ومنهم من لا يحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة .. ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجاج .

ورث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة انطافرة نفخة مباركة نفت عنه فى لحظة كل هذه الخبائث .. وطهرت لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب ، بل وضميره وروحه أيضا . فشهد مجتمع الاســلام فى ايامه اخاء وثيق التراحم .. واخذ كل حقه .. وقنع كل بحقه .. !!

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .

وأما الموالى ، فقد وضـــع عنهم اصرهم ، وصحح وضـــعهم .

وأما النزعة القبلية والاقليمية ، فقد طواها بيمينه .

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون .. ولا عراقيون وشاميون .. ولا عرب وموال .

لقد عادت رحم الاسلام تنتظم جميـــع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة فى قول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة »

* * *

ولم يقف تصور « ابن عبد العزيز » لوحدة الامة عند هذه الحدود وحدها .. بل امتد ايمانه بالوحدة وفهمه لها الى وضع الاقليات فأكد دمجها فى جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا فى رسالة مرت بنا من قبل ، أرسلها لاحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« ان ساروا فى الارض دون اساءة لاهل الذمة ، وللامة ، فدعهم » ..

وفى كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة ، اولئك الذين اسماهم الاسلام ـــ اهل الذمة ـــ توكيدا لما فى ذمة المسلمين لهم من عهد وميثاق ... !!

لقد كانوا الى يوم استخلافه يلاقون الكثير من العنت . ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة .. فما كاد يتولى أمر الامة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الاسلام لقاء توفير الأمن لهم .

وان موقفه من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق لمثل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم الامة كأمة ، بصرف النظر عن اختلافه الدين والجنس واللون فيها .. !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءا كبيرا من كنيسة يوحنا ، ليقيم عليه امتداد المسجد الاموى المشيد .

وحين ولى « عمر بن عبد العزيز » الخلافة . شكا اليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم .

ترى ، ماذا يصنع امير المؤمنين ؟

ان الجزء الذى تهدم من الكنيسة قد صار مسجدا .

وان اقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف أن يعطى تعويضا سخيا ، أو أرضا بديلة .

لكن « ابن عبد العزيز » يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن اساليبنا . . انه اسلوب قديس جليل !!

وهكذا اصدر امره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، واعادة الارض التى اتيم عليها الى الكنيسة . . !!

ودارت الارض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لاقناع امير المؤمنين بالعدول عن قراره .

ولكن أمير المؤمنين، اصدر امرا جديدا حدد فيه اليوم بل الساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم . . !!

ولم يجد العلماء سبيلا لانقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة فى دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقا يرضونه ، ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفد من الفريقين لابلاغ الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه . . !!

* * *

بم اذن نفسر ذلك الموقف الذى اتخذه من بعض أهل الكتاب من النصارى . حين أمر أن يعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، واحراج لهم . . ؟؟

اننا فى ضوء موقفه العام الذى رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيرا الا ان يكون قد دعاه اليه سلوك بعض اولئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التى كانت تشن باسم الصليب ــ حروبا عدوانية على دولة الاسلام .

يزكى ذلك ــ فى رأينا ــ تلك الرسالة التى حملت أوامره بشأن النصارى . فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد فى دورهم من سلاح .. مما يومىء الى وجود مؤامرة كانوا يهمون بها . على انه فى موقفه من هؤلاء ، لم يأمر باتخاذ اى اجراء عنيف .

كل الذى أمر به ان يميزوا بلباسهم الخاص .. وحتى هذا الاجراء يشير الى الريبة التى داخلت نفسه تجاههم ، فأراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلا لكشفهم .

فاذا جاوزنا هذه الفئة التى فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الامين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد اثار موقفه من الاديان ومن حقوق الاقليات فى دولته الراشدة انبهار واعجاب العالم الخارجى من حوله ، حتى ان امبراطور الروم « ليو الثالث » وقد كان خصما عنيدا لدولة الاسلام ، لا يكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاء مرا ، أذهل حاشيته واساقفته ، فسألوه فى ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق وأجمع ما قيل فى تأبين أمير المؤمنين :

لقد قال :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل ..!!

« وليس ينبغى أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله فى صومعته .

« انما العجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيهـــا ..!!

« ولقـــد كان حريا ان يعجل به ، فأهل الخير لا يلبثـــون مع أهل الشر الا قليلا » ....!!

أفكان هذا الامبراطور ليشهد فيه هذه الشـــهادة لو عرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق اهل الكتاب فى عهده .. ؟؟

بل هل كان كبير اساقفة الرومان سيخف مسرعا حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم الى جواره يطببه ويعالجه .. ؟؟

* * *

ونعود للعمل الذى عمله أمير المؤمنين من أجل وحـــدة الامة ، لنرى كيف كان فى نفس الوقت عملا فى سبيل سلامها الداخلى .

فالسلام الداخلى ، انما يتوفر بالقدر الذى يتجمع فيه شمل الامة وتتآخى أرواح بنيها .

ولقد انعم الله عليه وعلى امته بما تمنى من وحدة الاسلام ..

فماذا عن السلام الخارجى ووضـــع اوزار الحروب التى كانت مشبوبة الاوار خارج الحدود .. ؟

لقد رأيناه يبدأ فى الساعات الاولى من خـــلافته باصـــدار أمره للجيش الذى انهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدى جميع الاسرى على كثرتهم ويردهم الى ديارهم ووطنهم .

ثم نراه يضع حدا لكل الاعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة .. ويعلن أن الاسلام قد صار عزيزا منيعا بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة الا يتحرك بعد اليوم لقتال الا دفاعا عن حدود الدولة اذا هوجمت ، وعن سلامة الامة اذا تعرضت للاخطار .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التى ارسلها الى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم الى الاسلام ، فأسلم اكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى اليهم من أنبـــاء ورعه ، وزهده ، وعظمته وتقاه ..

كذلك كتب الى البربر ، فى افريقية .. يدعوهم الى الاســـلام فدخلوا فيه أفواجا .

وكتب الى ملوك ما وراء النهر ، فأســـلم أكثرهم ورفعوا راية الاســـلام ..

أليس رجلا مباركا ذلك القديس .. ؟؟

* * *

ــ وخامسا : أسلوبه فى التنفيذ ..

ماذا كانت الامة ستفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفاءته فى التنفيذ موازية لكفاءته فى حمل المسؤولية والاخلاص لها ..؟؟

هنا نلتقى بجانب من أبهى واغنى واقوى جوانب شخصية ذلك القديس الفطن الحازم الاريب .. نلتقى به صاحيا يقظان ..

ان كل ساعات اليوم الاربع والعشرين منذورة لمسؤولياته ..

ليس منها سوى الوقت الذى تستغرقه صلاته وعبادته ..

والساعتين أو الثلاث التى يمنحها لنومه وراحته . .

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه الا لمسؤوليته المقدسة .

وله اسلوب فريد فى انجاز هذه المسؤولية وتنفيذ منهجها . .

فاللين ، والحزم . . والاناة ، والحسم . . والاشراف العميم ، واللامركزية . . والمطاولة ، واليقظة . . كل هذه تعمل « مجتمعة » لا « مختلطة » ـــ فى اتساق فذ وتكامل عجيب . . !!

يبلغ به التعب يوما اشده ، فيسأله بعض خاصته ان يريح نفسه فيقـــول :

« ومن يجزى عنى عمل اليوم » . . ؟

فيقولون له : تنجزه فى الغد . .

فيجيب : « لقد فدحنى عمل يوم واحد حتى سالتمونى ان اريح نفسى ، فكيف اذا اجتمع على عمل يومين » . . ؟؟

انه لا يجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل اسبوع . . بل لكل يوم مسؤوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوما على آخر . لان لكل يوم مزدحمه وأحماله . . !!

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنتظمها دولته الواسعة . نداء النجدة . . لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم فى ادنى الارض وأقصاها الا الفته وكأنه فى انتظارها وحدها . . !!

وصغار الامور عنده مثل كبارها . . لها نفس الاهتمام والمسارعة حمل اليه بريده يوما رسالة من الجيزة بمصر .

اما صاحبة الرسالة فاسمها « فرتونة السوداء » تشـــكو لامير المؤمنين . ان لها حائطا ـــ اى بستانا ـــ متهدما يتسوره اللصوص دجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة خلافته بالشـــام حتى يكتب الى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل » هذا الخطاب :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى أيوب بن شرحبيل

« سلام الله عليكم . .

« أما بعد ، فان فرتونة السوداء كتبت الى تشـــكو قصر حائطها ، وان دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .

ونفس البريد الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمـــل كتابا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء . .

« من عبد الله عمر بن عبـــد العـــزيز امير المؤمنين الى فرتونة السوداء .

سلام الله عليك . .

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقتحم عليك ويسرق دجاجك .

« وقد كتبت الى « أيوب بن شرحبيل » آمره أن يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين ان شاء الله » . . !!

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلما جاء الكتاب الى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى اتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها

فاذا هى سوداء مسكينة ، فاعلى لها حائطها » .. !!

هذا خليفة قديس لم تفلت من رحمته وحسناته وعــدله وابوته شاردة ولا واردة .. !!!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شىء ..

انظــروا .. !!

انه يكتب لواليه على مصر ايضا :

« أما بعــد ..

« فقد بلغنى ان الحمالين فى مصر يحملون على ظهور الابل فوق ما تطيق ..

« فاذا جاءك كتابى هذا ، فامنع ان يحمل على البعير اكثر من ستمائة رطل .. !! »

بل انه ليبصر فى بعض جولاته اناسا يحملون مقارع ، فى اسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر فى مجلســه حتى يوقع قرارا يحرم استخدام هذه المقارع ..؟!

وتأتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب الاردن فيسأل : ما هــذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الاردن الى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلام جىء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز راسه ، ويقــول :

« لقد حملتموها فوق طاقتها .. بيعوا الرطب .. .
واشتروا بثمنه علفا لدواب البريد التى حملته .. » !!

* * *

ويبهرنا لينه ، واناته ، وسعة صدره التى لم تعرف حدودا .

وفى تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الاصيلة ــ هذه الرحمة الذكية التى لم تكن تعنى مجرد الشفقة بالناس بل تعنى القيام بحقهم فى بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف ..

وانا لنتسمع هذا النبض الحنون النبيل من خــلال دعائه الذى كان يضرع به الى الله كثيرا :

« اللهم زد محسن امة محمد احسانا ، وأرجع مسيئهم الى التوبة .. اللهم ، وحط من أوزارهم برحمتك » . !!

انه لا يتحسس الاخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها فى رحمة وحنــان .

وان اخطاء الناس لتشغله الى المدى الذى رايناه حيث لا ينظر اليها كحاكم ، بل كعابد . يصلى من اجل مغفرتها وانهاض ذويها .. !!

وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره وتســامحه ، داخل اطار ذاته ــ كخلق شخصى له فحسب .. بل يحولها الى فلسفة للحكم ومنهــاج .

ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« اذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى ، فلا تكوينه ابدا .. !! »

ولقد كان من حق حكام الاقاليم قبل عهده أن ينفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلا ، أو ظلما .

فلما ولى ، حرمهم هذا الحق ، وأصدر أمره الا ينفذ حكم القتل فى احد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلا :

« والله لا اصلح الناس بهلاك دينى » !!

* * *

على أن رفقه واناته اللذين وسعا امته جميعا ، لم يكونا مطمعا يغرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تسول له نفسه عبثا ، أو فتنة .. !!

ولقد كانت فضائله كلها مهيأة على الدوام لحماية مواقعها واداء دورها . فلا يجىء موقف يتطلب الرحمة ، فيجدها غافية .. ولا موقف يتطلب الحزم ، فيجده كليـــلا .. !

ولقد نراه مع عامة الناس ينتفض كالعصفور تواضـــعا وحنانا ورحمة .

ثم نراه مع الجبارين اسدا يزأر .. وجلالا يهاب .. !!

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد اقطاعاتهم وثرواتهم

بالضراعة والحيلة ، اغروا واحـدا منهم وهو « عمر بن الوليـد بن عبد الملك » بالكتابة اليه مهددا متوعدا . . فكتب يقول :

« أما بعد ، فقد أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت
« بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل وعملت
« بغـير الحق فى قرابتك . وعمـدت الى أموال قريش
« ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلمـا وجورا
« وعدوانا .

« فاتق الله يا ابن عبد العزيز ، فانك توشك الا تطمئن على منبرك . . . » !!!

وفى نفس اللحظة التى يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خلق الحزم الصارم ليؤدى دوره تجاه الباطل الذى يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبهتانه . . !!

ويكتب أمير المؤمنين رده :

« من عمر أمير المؤمنين ، الى ابن الوليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

« أما بعد ، فعهدى بك كنت جبارا شقيا ، والآن تكتب تتهمنى بالظـلم ، لاننى حـرمتك وأهـل بيتك من مال المسلمين ما هو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل .!

« الا ان شئت اخبرتك بمن هو اظلم منى واترك لعهد الله انه ابوك الوليد ، الذى حين كان خليفـة للمسـلمين استعملك عليهم صبيا سفيها تحكم فى دمائهم واموالهم .!

« فويل لك ، وويل لابيك — ما أكثر طلابكما وخصماء كما يوم القيامة ..

« واظلم منى واترك لعهد الله . من استعمل الحجاج بن يوسف . يسفك الدم الحرام ..

« واظلم منى واترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن ابى مسلم على جميع المغرب . يجبى المال الحرام .. ويسفك الدم الحـــرام ..

« الا رويدك يا ابن الوليد . فلو طالت بى حياة لاتفرغن لك ولاهل بيتك حتى اقيمكم على المحجة البيضاء » ..!!

لنضع خطابه السابق الى « فرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا الى ذلك الأمير الأموى المتجبر ، لنرى فى غير تعليق كيف كانت تعمــل فضائل هذا الانسان الباهر الجليل ..!!

ان الرجل الذى يجلس للناس على الارض وهو خليفة ..

الانسان ، الوديع ، المــذب ، يتحول الى اعصار مدمدم امام جبروت الباطل انى يكون ..!!

ومثل هـــذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من امبراطور الروم .

لقد اخبر ان أحد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وكان مقاتلا شديد البأس ، قد وقع اســـيرا فى أيدى الرومان . وحمل الى الامبراطور الذى حاول اكراهه على الخروج من دينه الاســـلام ، ورفض الأسير .. فأمر الامبراطور ان تسمل عيناه .

بلغ النبأ ــ أمير المؤمنين ــ فهب حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب الى ملك الروم :

« أما بعــد . .

« فقد بلغنى ما صنعت بأسيرك فلان . .

« وانى اقسم بالله . لئن لم ترسله الى من فورك لابعثن اليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندى » . !

ويعود الاسير الى وطنه واهله .

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلى فى الانجاز وحده ــ بل وفى رؤية القضايا ، وادراك الكليات والتفاصيل . .

ولو تتبعنا كتبه الى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما يبهر الألباب .

فلنقنع ببعض فقرات من تلك الكتب :

* « اتبعوا ما احل الله وحرموا ما حرم واعترفوا بحقه تعالى ، واحكموا بما انزل .
* « افتحوا للمسلمين باب الهجرة .
* « دعوا النــاس يتجروا بأمــوالهم فى البر والبحر ، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم .
* « أبيحوا أرض الحمى للمسلمين عامة ، وليــكن حق الامير فيها كحق واحد منهم .

* « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر » .
* « كافحوا التطفيف فى المكيال والبخس فى الميزان .
* « لا تتجروا وانتم ولاة ، فان الامير اذا اشتغل بالتجارة استاثر ، واصاب ظلما ، وان حرص الا يفعل .
* « لا تاخذوا من اموال الناس الا الحق الذى شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله — لا افرق بين مسلم واهل كتاب .
* « ضعوا السخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل اجره .
* « ردوا المزارع لما خلقت له ، فانما جعلت لارزاق المسلمين كافة .
* « لا تتخذوا على ابوابكم حجابا يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين .
* « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدعوا الناس يقول احدهم ، انا مضرى ، ويقول الآخر : انا يمنى ، فالمؤمنون اخوة .
* « الخيل عدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض فى غير حق .
* « امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى .
* « قاتلوا هواكم ، كما تقاتلون أعداءكم .
* « سددوا المخالفين ، وبصروهم ، وارفقوا بهم ،

وعلموهم ، فان اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلا ..
وان ابوا فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب .

* « اكثروا من دعاء الله بالعافية لانفسكم ولمن ولاكم الله أمره ، فان لكم فى اصلاحهم اكثر مما لهم .. وعليكم من فسادهم اكثر مما عليهم .

* « تعاهدوا حجابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم ، واكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشما ولا ظلما .

* « لا يأخذنكم الزهو بنظر الناس اليكم ، ولا بحديثهم عنكم . وضعوا أعينكم على الذى هو ابر واتقى واخلص لله رب العالمين .

* « اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة ، فان من أضاع الصلاة كان لما سواها اضيع .

* « تحروا الحق ، ثم اعملوا به بالغا ما بلغ بى وبكم .. حتى وان ذهب بحياتنا وبمهج انفسنا .. » !!

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وارادته .

يقظة تعطى الجزئيات نفس الاهتمام الذى تعطيه الكليات !!

وبهذا المنهج الذى يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه قطع

ابن عبد العزيز طريقه وثبا ، متخذا من الانجاز وسرعة الحركة طابعا لمسيرته المباركة .

لقد كانت مسئوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ، ومشكلات الدولة والامة لا تنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها، بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، ففيم اذن يكون تلفت أو انتظار ..؟!

ومن هنا انطلق ينجز ، وينجز ، وينجز .. معطيا كل مسؤول مسؤوليته ، آمرا اياه أن يمضى بها فى شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان ينهى ولاته عن أن يكونوا امعات أو متواكلين ، هيابين .

وانه ليرضى اعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مقبلين على مسؤولياتهم فى شجاعة ، منجزين اياها فى حزم ، ميممين وجوهم وافئدتهم صوب الحق وحده ، لا يعدلون به أحدا حتى الخليفة نفسه .

« اذا ارسلت اليكم امرا يخالف الحق ..

« فاضربوا به الارض ..

« واستمسكوا بالحق وحده » !!!

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسؤولية ، بمنحهم قدرا كبيرا من اللامركزية ، والاستقلال .

أرسل يوما الى احد ولاته امرا ، فارسل الوالى يستوضحه ببعض التفصيلات . فتجهم الخليفة وكتب اليه من فوره :

« أما بعد ..

فأراك لو أرسلت اليك : أن أذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ، لارسلت الى تسألنى : ضأنا أم ماعزا ؟ .
فان أجبتك . . أرسلت الى تسألنى :
كبيرة ، أم صغيرة .؟
فان أجبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء ، أم سوداء . ؟ !!
« اذا أرسلت اليك بأمر . فتبين وجه الحق فيه . ثم أمضه » . !! .

انه لا يريد أن نتلكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة .

انه يجد نفسه مسؤولا عن كل خطأ ، او مظلمة تبقى دقيقة من الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الايام وثبا وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . !!

وبمثل هذا الحسم والانجاز . كان يغير كل وال ، أو قاض ، او أمين أو رئيس شرطة، أو مسؤول لا تثبت التجربة السريعة الصادقة أنه فى مكانه . . واذا خدع فى احد فظنه للمنصب أهلا ، ثم تبين له أنه غير أهل ، لم ينظره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وانجازه بلاد الدولة اعمارا وحياة ، وفجرت طاقات الناس تفجيرا .

وعلى الرغم من انه كان يرى القدوة التى يقدمها للناس جميعا. تفعل فيهم فعل السحر ، وتجرى من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم فى العروق ، فانه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . . فنراه يتنقل فى مواطن كثيرة متخفيا ومتنكرا يسأل ، ويفحص . .

ولم تكن فى الحياة بأسرها متعة تشيع فى روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع ان ظلما قد دحض .. وأن عدلا قد نهض .. وان حقا قد رد لصاحبه فى غير جهد منه ، أو الحاف ..!!

ركب يوما فى احدى جولاته هذه ، مصطحبا معه مولاه «مزاحم» حيث خرجا الى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين .

وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه يسأل الغادين منم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل فى احدى القوافل ، اقترب منه «عمر» وسأله:

« كيف تركت الناس فى بلدك ..؟ »

فقال الرجل : ان شئت جمعت لك خبرى ، وان شئت بعضته تبعيضا .. !!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه — اى ، أوجزه .

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور .. والمظلوم منصور . .والغنى موفور . .والفقير مجبور » ..

وسارع «عمر» بالانصراف بعيــدا عن محدثه قبل أن تشى به انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تتحدر من مآقيه .

وولى مسرعا . مسرعا . وقلبه الشــكور ، ولســانه الذكور يتضرعان الى الله بآيات الحمد والثناء .

والتفت الى « مزاحم » وقال له :

« والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل، لأحب الى مما طلعت عليه الشمس » . . . ! ! !

كتب المؤلف

مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة تليفون ٩٠٦٧٠٦

هذا الكتاب

علينا – نحن المسلمين – أن نعيد القرآن العظيم إلى مكانه العالى فى قلوبنا وحياتنا. ونشد على راية الأسلام بسواعد قوية متفانية..

وعلينا أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن نسلم رقابنا للأغلال، وديننا للضياع، وروحانيتنا للجفاف..

علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لايزال قائما. وأن الأسلام الذى نحمل لواءه لم ينته، ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر. كما لن تنتهى حاجة البشرية إليه؛ لأن عظمته الفريدة ماثلة فى أنه يقدم مع حضارة المادة حضارة الروح..

وأخيرا، علينا أن نعمق ايماننا بأن الأسلام

دين، ودولة ..

حق، وقوة ..

ثقافة، وحضارة ..

عبادة، وسياسة ..

الناشر: دار ثابت للنشر والتوزيع – ٩٢ شارع محمد فريد القاهرة – ص.ب